

رَبِّي الْأَوَّل

نشأة ابن باديس الفكرية

الفصل الأول : مراحل حياته وشخصيته .

الفصل الثاني : العوامل التي شكلت تفكيره .

الفصل الثالث : ابن باديس المصلح الفيلسوف .



الفصل الأول

مراحل حياته وشخصيته

ابن باديس : هو عبدالحميد بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس ولد بمدينة قسنطينة بالجزائر فى الخامس من ديسمبر عام ١٨٨٩ م الموافق ١٣٠٨ هـ .

وكانت أسرته معروفة بفضلها وثراتها واهتمامها بالعلم ، وكان لها تاريخيا السياسى فى الحكم لأن والده وجده كانا من قضاة قسنطينة ، كما كان أحد أجداده الأرائل وهو : المعز بن باديس أحد ولاية المغرب بين عام ٩٧٢ - ٩٨٤ م الموافق ٣٦٣ - ٣٧٣ هـ . والذي كان ابن باديس يذكره كثيرا ويفتخر به .

ومنذ ميلاد ابن باديس حرصت أسرته على تلقيه علوم اللغة العربية والدين وإبعاده قدر الإمكان عن التعليم فى المدارس الفرنسية التى كانت منتشرة بالجزائر وقتذاك .

ولذا عهدت بتعليمه الأولى وخاصة حفظ القرآن الكريم إلى الشيخ محمد المداس والذي على يديه أتم ابن باديس حفظ القرآن وهو فى الثالثة عشرة من عمره .

وفى هذه الأثناء أيضا كان يتولى تعليمه ثلاثة من رجال العلم المشهود لهم فى قسنطينة وهم محمد الشاذلى القسنطينى وعبدالقادر المجاوى وابن الموهوب.. حيث بدأت على يد هؤلاء حياة ابن باديس العلمية ..

أولاً : مراحل حياته ..

ويمكن أن نميز فى حياة ابن باديس بين ثلاث مراحل هامة ، المرحلة الأولى وهى مرحلة نشأته فى قسنطينة وبداية التعلم ، والمرحلة الثانية وهى مرحلة تواجده بتونس لتحصيل العلم بجامعة الزيتونة ورحلته إلى الشام والحجاز ومصر ثم المرحلة الثالثة وهى مرحلة كفاحه الأدبى والفكرى من أجل إصلاح مجتمعه

وتحقيق الوعي لطبقاته وهي المرحلة التي بدأت منذ عودته إلى الجزائر عام ١٩١٣ واستمرت حتى وفاته في السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠ م .

المرحلة الأولى :

يصف الدكتور عمار الطالبي لحظة ميلاد ابن باديس بلحظة الترقب والانتظار والأمل الذي يترقبه المجتمع الجزائري والعربي في ذلك الوقت ، ويقول : ومن ثم فإن تلك اللحظات التاريخية كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس تقوم بدور ثوري يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل ويضيء الطريق أمام الحائرين ويجمع الشتات ويوجه الطاقات ويحيى الشخصية الإسلامية .. وهكذا جاءت الأيام بالمولود الجديد منقذ الأمة وقائدها لصنع مصيرها وخلق تاريخها^(١) ..

وأهم ما تميزت به نشأة ابن باديس الفكرية في المرحلة الأولى من حياته والتي بدأت منذ ميلاده في الخامس من ديسمبر عام ١٨٨٩ وحتى بلوغه عامه التاسع عشر عام ١٩٠٨ م : هو نبوغه المبكر في علوم العربية والدين وحفظه للقرآن الكريم الذي أهله لإمامة الناس في الجامع الكبير بقسنطينة وهو في سن الثالثة عشرة من عمره ..

ثم اللقاء العابر بين الأستاذ الإمام محمد عبده والتلميذ ابن باديس بالجامع الكبير حيث كان الإمام محمد عبده في زيارة لقسنطينة ونزوله بالجامع الكبير الذي كان يصل في ابن باديس إماماً في صلاة التراويح وكان عمره آن ذاك أربعة عشر عاماً ..

حيث كان الإعجاب والتأثر بآراء محمد عبده الإصلاحية في أنحاء الشمال الإفريقي وخاصة تونس والجزائر ..

(١) راجع : ابن باديس : حياته وآثاره : جمع وتحقيق الدكتور عمار الطالبي المجلد الأول - الجزء الأول ص ٧٢ .

وفي هذه المرحلة أيضا كان اهتمام ابن باديس بعلوم اللغة والدين والتفسير والفقه والأخلاق والتي بدأ دراستها على يد الشيخ احمد بن حمدان لونس قبل سفره إلى المدينة المنورة لتدريس مادة الحديث هناك . ثم على يد بعض رجال العلم والدين في قسنطينة أمثال : الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني وعبدالقادر المجاوي وابن الموهوب الذي كان ابن باديس يواظب على حضور ندواته ومحاضراته وتأثر بأرائه ثم أصبحا صديقين فيما بعد ولم يفترقا إلا بعد أن تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣٠ م .

وهكذا كانت نشأة ابن باديس الأولى في بيت علم ودين وورع لأن أسرته كانت تنتمي إلى الطريقة القادرية سالكا طريق أجداده من السلف الأعلام في الدين والسياسة والجهاد .

المرحلة الثانية : ابن باديس في تونس

هذه المرحلة بدأت عام ١٩٠٨م عندما سافر ابن باديس إلى جامع الزيتونة بتونس ليدرس العلوم الإسلامية على يد شيوخها أمثال محمد النخلى القيرواني ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والخضر بن الحسين الجزائري الذي درس ابن باديس عليه دروساً في المنطق من كتاب «التهذيب» للسعد ، كما أخذ عنه دروساً في التفسير من كتاب الإمام «البيضاوي» .

وكان الشيخ محمد النخلى القيرواني المتوفى عام ١٩٢٤م هو الذي قرظ الرسالة التي ألفها ابن باديس في الرد على عليوه الصوفى .

أما دراسته اللغوية وباقي العلوم الإسلامية فقد تتلمذ فيها على يد الشيخ احمد أبو حمدان لونس الذي كان له التأثير الكبير في توجهات ابن باديس الإصلاحية والأخلاقية ..

وعندما أتم ابن باديس دراسته بجامع الزيتونة عام ١٩١٢ حصل على شهادة

التطويع وكان عمره يناهز الثالثة والعشرون ، وفي نفس العام قام ابن باديس بالتدريس في جامع الزيتونة لمدة عام على عادة الخريجين من الجامع في ذلك الوقت وفور انتهاء ابن باديس من عامه التدريسي بجامعة الزيتونة بتونس وحصوله على شهادة التطويع ودراسته لفنون اللغة والتفسير والمنطق والأدب والفقه وغيرها عاد إلى الجزائر متحمسا للتدريس ، وبالفعل بدأ بإلقاء الدروس في الجامع الكبير بقسنطينة ثم تدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض ..

ولكن بسبب بعض الصعوبات ومكائد الأعداء شعر بالإحباط فقرر السفر في رحلة علمية إيمانية إلى بلاد المشرق العربي ليلتقى بعلمائها ويدرس على الواقع أحوالها..فبدأ رحلته بالحجاز وهناك التقى بشيخه وأستاذه حمدان لونيس ، وألقى ابن باديس درسا بالحرم النبوي الشريف على عادة العلماء فعرفه الناس من يومها وأوصى الشيخ حمدان ابن باديس بمقابلة الشيخ بخيت شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت وسلمه رسالة له .. والتقى ابن باديس بالشيخ بخيت في منزله ، وبعد الإلتقاء والمناقشة عرف الشيخ بخيت مدى تعمق ابن باديس في مختلف العلوم فأجازة الشيخ بخيت بشهادة العالمية الأزهرية ..

ثم زار ابن باديس بلاد الشام ولبنان والتقى بعلماء الشرق هناك وتعرف عن قرب بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية ومدى حاجة الأمة العربية إلى الإصلاح والنهضة واليقظة^(١) .

وهذه المرحلة التي بدأها ابن باديس منذ عام ١٩٠٨م في تونس ثم رحلته إلى الشام والحجاز ومصر حتى عودته إلى الجزائر عام ١٩١٣ يصنفها الأستاذ عمر ابن قتيبة بقوله : إن هذه المرحلة كان لها خطوات محددة رسمها ابن باديس بدقة، ففى الخطوة الأولى كان التكوين والاستعداد من خلال بلورة الحركات الإصلاحية

(١) آثار ابن باديس : ج ١ ص ٨٠ - ٨٢ .

الموجودة فى الشمال الإفريقى وخاصة فى تونس والجزائر وتقييمها والتعرف على أصولها والعقبات التى تعترض تنفيذ برامجها الإصلاحية ، حيث لاحظ ابن باديس فى هذا الإطار محاولة الإصلاح التى تزعمها احمد بن عمار صاحب كتاب (نحلة اللبيب فى الرحلة إلى الحبيب) والذى قال : وأسفاه على عصر ساد فيه الجمود والتقليد ، ثم حركة الإصلاح التى تزعمها محمد بن محمود بن حسين الجزائرى المعروف بابن العناتى صاحب كتاب (السعى المحمود فى نظام الجنود) وفيه دعا إلى الاقتباس من الأجانب والعمل على سبقهم ، كما ألح على ضرورة التغيير فى نواحي الحياة الاجتماعية^(١) .

وهذا ما يؤكد تأثير وتأثر ابن باديس بالبيئة الثقافية والاجتماعية سواء فى المشرق العربى أو المغرب العربى ومدى تأثيره بالدعوات الإصلاحية وزعماء النهضة وأنصارهم وخاصة أستاذية محمد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلى ودورهما الكبير فى تكوين شخصيته وإتجاهه العقلى وهذا ما سيتضح تفصيلاً فيما بعد .

المرحلة الثالثة :

بدأت منذ عودة ابن باديس إلى الجزائر عام ١٩١٣ وحتى وفاته فى السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠ م .

وسميت هذه المرحلة بعدة سميات ..فهى : مرحلة العمل التربوى لأن ابن باديس بدأها بتعليم النشء مبادئ اللغة والدين وعلوم القرآن ..

وهى مرحلة إصلاح العقيدة والمجتمع لأن ابن باديس بدأها بمواجهته الحاسمة للطرقية والكثير من العادات والخرافات السائدة فى مجتمه وهى مرحلة الجهاد والكفاح العملى من أجل الاستقلال والحرية لأن ابن باديس بدأها برفع شعار التحرير والنهضة ..

(١) عمر بن قتيبة : ابن باديس : رجل الإصلاح والتربية ص ١٧ - ١٩ .

وهي مرحلة البناء الأدبي والثقافي وتحقيق الوعي لأن أهم ما يميز هذه المرحلة هو إصدارات ابن باديس الصحفية واهتمامه بفتون الأدب والمناهج التربوية ومقاومة البدع الاجتماعية التي تعوق الوعي الاجتماعي المطلوب ، وفي هذا الإطار كان اهتمامه بما تكتبه الصحافة الغربية وخاصة الفرنسية عن العرب والجزائر فكان ينقل ما يكتبون ثم يعلق عليه ويرد ..

ويصف ابن باديس في إحدى مقالاته بداية هذه المرحلة وملامح العمل فيها فيقول : «لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٣ م وعزمنا على القيام والتدريس أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة وآدابها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ الجغرافيا والتاريخ والحساب ومضينا على ما رسمنا من خطة رصرنا إلى ما قصدناه من غاية ، وقضينا عشر سنوات في الدرس لتكوين النشئ تكويننا علمياً .. فلما كملت العشر وظهرت بعون الله نتيجتها رأينا واجب علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات فكان لزاماً علينا أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس» (١) .

وهكذا وضع ابن باديس أسس منهجه الإصلاحى وحدد مسأله في التفسير والتحليل والتدريس والصحف وتأسيس الجمعيات العلمية والاهتمام بالإنسان عقلاً وروحاً وبدناً لأنه أساس المجتمع السليم والسعى لبناء جيل جديد واع ومتعلم ليتحمل مسؤولية الدعوة والإصلاح .

من أجل ذلك أصدر ابن باديس العديد من الصحف ابتداء بالمتقدم الذي صدر عام ١٩٢٥ م ثم المجاهد الثقافي والمجاهد الأسبوعي والشعب وجميعها صدرت عام ١٩٢٥ . وفي عام ١٩٢٩ أصدر جريدة الشهاب (فبراير ١٩٢٩ - رمضان

(١) راجع : ابن باديس : حياته وآثاره ، الجزء الأول .

١٣٤٧) ثم الشريعة والصراط عام ١٩٣٣ التي استمرت حتى يونيو ١٩٣٤ وفي عام ١٩٣٥ أصدر ابن باديس مجلة البصائر تحت رعاية جمعية العلماء المسلمين التي كان ابن باديس رئيساً لها .

وكانت هذه الصحف هي الوسيلة الفعالة لنشر مبادئه الإصلاحية وتعاليمه الدينية ، والقيم والأخلاقيات والمبادئ التي كان ينشدها ويرمى لتحقيقها وفي مقدمتها الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات .

وكانت هذه الصحف هي وسيلة لتقويم الواقع بمناصره السلبية والإيجابية وتصحيح المفاهيم والمعتقدات الزائفة ، فكانت آراؤه لإصلاح العقيدة والمجتمع وبها تخطى ابن باديس حدود مجتمعه وانتشرت آرائه شرقا وغربا فتعرف العرب على آراء ابن باديس في التفسير والتاريخ والدين والمجتمع وتعرفوا على دوره الإصلاحى ودليل ذلك قول الأستاذ محمد المبارك من سوريا ، بأن كانت تصلنا جريدة الشهاب ثم البصائر ونقرأها بلهفة شديدة متطلعين إلى أخبار قطر عربى مسلم كان معروفا ومشتهرا عنه أن اللغة العربية أصبحت مجهولة فيه^(١) .

ولذا قيل أن ابن باديس كان داعية للأخذ بثقافة العصر وجوانب الإبداع من كل تراث ، وأنه كان حريصا على تحقيق التوازن بين المحلية والعالمية سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة^(٢) .

وفي هذه المرحلة قام ابن باديس بتجميع وبلورة الأفكار الإصلاحية السابقة عليه وإعدادها للتطبيق ، وبدأ اتصاله الفعلى وترابطه مع حركات الإصلاح الدينى والخلقى الموجودة فى باقى أنحاء العالم العربى وخاصة فى مصر حيث ظهر تأثيره

(١) راجع : عمر بن قنية : ابن باديس رجل الإصلاح والتربية ص ٢٠١٧ ، وفى مقال تركى رابع

فى مجلة الأصالة : ابن باديس والشخصية الجزائرية ص ٢٨١/٦٧ .

(٢) محمد الميلى : ابن باديس وعمروية الجزائر ص ٥٢ ، ٨٥ .

(م ٢ - عبد الحميد بن باديس)

الواضح بالاتجاهات الإصلاحية التي بدأها محمد عبده ورشيد رضا ..

ويصف الدكتور محمد البهي في مقدمة التفسير الباديسي هذا التأثير بقوله :
 إن عبدالحميد بن باديس حلقة في سلسلة ابتدأت بجمال الدين الأفغاني ومحمد
 عبده في القرن التاسع عشر ، وثنت برشيد رضا في القرن العشرين ، إنه واحد من
 أولئك الذين رأوا في الإسلام نظاما لحياة الإنسان لأنه إنسان في أى وقت وفي أى
 مكان(١) .

ويعترف المستشرق الإنجليزي جيب بهذا التأثير الإصلاحى بقوله : إن جمعية
 العلماء المسلمين التي تأسست في الجزائر برئاسة ابن باديس كانت مهمتها نشر
 مذهب المنار ، وكانت الجمعية تعارض بصفة خاصة المرابطين والطرق الصوفية ،
 وذهب الجزائريون أبعد مما ذهب إليه حزب المنار(٢) .

أما ماسنيون فيصف الحركة السلفية التي يمثلها ابن باديس وزملاؤه بأنها
 حركة متشددة نصف وهابية ويعتبرها فرع للحركة التي تمثلها المنار في القاهرة ،
 ويؤكد على أن ابن باديس كان وثيق الصلة بالحركة في مصر مترسما لخطاها ، وأن
 هذه الحركة السلفية كان لها تأثيرها لما ينطوى عليه برنامجها من الرجوع إلى
 تعاليم القرآن .. بل يرى أيضا أن لحركة ابن باديس أتباع في الرباط من أعمال
 مراكش ..

ويعتبر مالك بن نبي (زميل ابن باديس وتلميذه في نفس الوقت) أن صوت
 جمال الدين الأفغاني كان له الأثر الفعال في انبلاج فجر النهضة الجزائرية .. وأن
 معجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبدالحميد بن باديس وندائه فأيقظ

(١) مقدمة التفسير ص ٨

(٢) راجع : تركى رايح : ابن باديس والشخصية الجزائرية ومجلة الأصالة ٤ ص ٦٧ - محمود قاسم :
 ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ص ٤٤ / ٤٥ . - ابن قتيبة : ابن باديس رجل
 الإصلاح والتربية.

المعنى الاجتماعي وحول مناجاة الفرد إلى حديث الشعب^(١) .

وإذا كانت هذه المرحلة من حياة ابن باديس هي أهم مراحل حياته العملية الناضجة فقد أمكن تقسيمها إلى مرحلتين هامتين :

- المرحلة الأولى : وهي مرحلة النظر والدراسة ووضع قواعد المنهج وتأسيس المبادئ الأخلاقية والتربوية وهي التي استمرت منذ ١٩١٣ وحتى ١٩٢٥ .

- المرحلة الثانية : وهي مرحلة التطبيق العملي لهذه الآراء والمناهج في المجال الاجتماعي والسياسي من خلال الصحف والخطب والمواقف والمقالات وهي التي استمرت منذ عام ١٩٢٥ وحتى وفاته في إبريل عام ١٩٤٠ م .

وكان يميز المرحلة الأولى (النظرية) اهتمام ابن باديس بدروس التفسير والحديث حتى أنه أتم تدريس وتفسير القرآن درساً على مدى خمسة وعشرون عاماً لاعتقاده الراسخ بأن إحياء القرآن على طريقة السلف هو إحياء للأمة التي تدين به .

والى جانب التفسير والحديث اهتم ابن باديس بدراسة وتحليل الحضارة الإسلامية ومبادئ العلوم الحديثة اللازمة للشباب وخاصة علوم الحساب والجغرافيا .

وفي هذه المرحلة أيضاً ظهرت سلفية ابن باديس وتمسكه بالعقل والدعوة إلى ضرورة استخدامه في كل أمور الحياة سواء اقتصادية أو علمية أو دينية ولهذا كان منهجه الذي سار عليه في هذه المرحلة هو :

١- ضرورة الدعوة والتمسك بالإسلام الحقيقي الذي أسماه الإسلام الذاتي، وبالعلم الصحيح المتفق مع ما جاء به الكتاب والسنة وصالح سلف الأمة وذلك لاعتقاده بأن الفكر الإسلامي الأصيل كان دائماً وراء نجاح وتطور الأمة وهو

(١) راجع : آثار ابن باديس ج ١ ص ٦٣ / ٦٧ ، مالك بن نبي : شروط النهضة ومشكلات الحضارة .

سر حيويتها وباعث نهضتها ولذا كان هذا الفكر بوضوحه وأصالته هو الأداة الفعالة في نجاح الأمة العربية واستقلالها .

٢- ضرورة تحرير سلطان العقل من الخرافات والبدع التي أدخلها أصحاب الطرق الضالة ، والبعد عن عوامل الجمود والتحجر وذلك بالاعتماد على العلم وحده والأخذ بالأسباب الحقيقية والموضوعية وعوامل التقدم والتطور .

٣- ضرورة الدراسة العلمية المنهجية لتاريخنا وتراثنا لاستلهام العبرة منه ورسم طريق المستقبل والكشف عن عوائق النمو الحضارى وكيفية التغلب عليها.

أما المرحلة الثانية (العملية) فهي مرحلة الانتقال من العمل التريوى والإصلاح الدينى والخلقى إلى مرحلة العمل السياسى والاجتماعى والتأثير المباشر فى الوعى الاجتماعى .. وكان من أبرز أحداث هذه المرحلة :

١- استخدامه للصحافة والكتابة سلاحاً للقضاء على التخلف والجهل ، وظهور ارتباط تفكيره السياسى مع تفكيره الإنسانى وإرتباط هذين مع تفكيره الإصلاحى الشامل لقضايا الدين والمجتمع ، وقد صرح ابن باديس بهذه الحقيقة فى محاضرة ألقاها بتونس فى ذكرى البشير صفر حين قال : لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم ولا الدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق^(١) .

٢- أصبحت قضية الاستقلال والحرية فى مقدمة القضايا التى سعى لها وجاهد فى سبيلها باعتبارها الغاية القصوى التى من أجلها :

- شارك فى جميع الأحداث السياسية وفى مقدمتها المؤتمر الإسلامى عام

(١) ابن باديس : حياته وآثاره ، عمار الطالبي ج ١ م ١ ص ٨٨ وفى البصائر العدد ٧١ السنة

١٩٣٦. حيث أكد أن الإستعمار رجال التبشير والتنصير وأصحاب الطرق الضالة ودعاة التجنيس والأندماج والفرنسة كلها من عوامل التخلف التي يجب مواجهتها.

- حاول تجميع الأفكار الإصلاحية والقوى الوطنية لمواجهة عوامل تدهور المجتمع وغياب الوعي ومن أهمها : فصل العقيدة عن العمل وعدم الفهم الصحيح للعقيدة والبعد عنها وتطرق الشرك الخفى .

- حاول إقامة نهضة فكرية عن طريق مخاطبة العقل والوجدان وفتح الأذهان والاعتماد على العلم والبحث المنهجي وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوس المواطنين .

- حاول إقناع الجميع بأن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أم الدنيا وقد استقلت أم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الإله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد ، فكلما نقلت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادى والأدبى وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة إستقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر^(١).

وكان إصراره على المطالبة بالاستقلال والدعوة إلى الثورة وتشجيعها فكان يردد لزملائه عاهدوني إنى سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشن عليها إيطاليا الحرب.. وهل يمكن لمن شرع فى تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال .

(١) الشهاب جـ ٣ م ١٢ عدد جوان ١٩٣٦، ص ١٤٥، ١٤٦، وفي آثار ابن باديس جـ ١ م ١

٣- استطاع ابن باديس أن يحدد ملامح الفكر الإسلامى ومجالات العمل التى تحقق الوعي والنهوض الحضارى ، وقدم فكراً يتميز بالمرونة والعقلانية والقابلية للتطبيق بالإضافة إلى صفة الشمول التى تميز فكره ومنهجه الذى يشمل الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية وأن هذا الفكر يتميز بالتفسير الصحيح والتحليل المنطقى سواء لقضايا الواقع العملى وكذلك-آيات القرآن والحديث ، وهذا يفسر اهتمام ابن باديس بالقضايا المتعلقة بالعلية-رئلاقة الإنسان بالخالق سبحانه ، وهذا ما ظهر عند معالجته لقضايا الحرية الإنسانية والعلم والفاعلية والجزاء والإرادة وغيرها ..

وقد وصف ابن باديس بداية منهجه بوضوح حين قال :

إننا نربى تلامذتنا من أول يوم على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم سواء بتفسير الآيات أو شرح الحديث وإعداد الدروس .

كما أكد على أن هذا المنهج القرآنى هو السبيل لتحقيق النهوض الحضارى والتغيير الاجتماعى لاحتوائه على منهج الاستدلال فى الرد والحجاج وأنه المنهج الذى يتلاءم مع الفطرة الإنسانية .

٤- فى هذه المرحلة ظهر التأثير الواضح لأفكار زعماء الإصلاح أمثال الكواكبي والأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا .

وهو ما سيتم تفصيله لاحقاً عند الحديث عن مكونات تفكير الإمام ابن

باديس .

ثانياً : شخصيته وأهمية دراسته :

شخصية ابن باديس التي تتميز بالتكامل والبراء والعقلانية والشمول وصفها لنا بدقة أصدقائه وتلاميذه ومن ساروا على نهجه وتأثروا بأرائه ، فمنهم من تناول شخصيته في تكاملها وشمولها وتحدثوا عن ابن باديس المؤرخ والمصلح والسياسي والوطني وفي مقدمة هؤلاء مالك بن نبي وعمار الطالبي ، ومنهم من تناول شخصية ابن باديس الثائر والمكافح وفي مقدمتهم الدكتور قاسم في كتابه : عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، ومنهم من تناول شخصيته التربوية مثل عمر بن قية في كتيبة : عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية ومنهم من تناول شخصيته الأدبية مثل محمد العيد آل خليفة وغيره ومنهم من تناول شخصيته العلمية والدينية مثل زميله الشيخ البشير الإبراهيمي . وهو الذي يصف نشأته وشخصيته المتكاملة حين يقول : إن عبد الحميد بن باديس كان من أعلم علماء الشمال الإفريقي وباني النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية في الجزائر وأنه عندما أشفق على تنوع الثقافة الإسلامية أن يصد تياره بما تراكم فيه من غشاء وحطام فانبرى بالتدريس والإصلاح فجعل للإسلام الغنى الواضح قولاً في كل مسألة ورأياً في كل معضلة وتوجيهاً في كل قصد^(١).

ويعتبر مالك بن نبي ثم عمار الطالبي في مقدمة من قدموا شخصية ابن باديس في شمولها وثرائها ونهبوا إلى أهمية دراسته ودوره الفعال في تقديم المنهج الإسلامي الصحيح .

وقد أشار الأستاذ مالك بن نبي عند تقديمه لكتاب آثار ابن باديس في المجلد الأول ، أشار إلى التنوع والشمول في شخصية ابن باديس وما تميزت به من قدرة على الإقناع والمناظرة كما أشار إلى تماسك منهجه ودوره الفعال في بناء

(١) راجع مقدمة تفسير ابن باديس ص ٧٧/٧٦ ، وتركى رابع : ابن باديس والشخصية الجزائرية .

الشخصية الجزائرية والتاريخ المغربي بوجه عام .. وجاء في وصفه إن شخصية ابن باديس تجمع في طبيعتها جوانب بلغت من التنوع والغنى مبلغا عظيما ، فقد كان مناظراً مفحماً ومرياً بناءً ومؤمناً متحمساً وصوفياً والهأ ومجتهداً يرجع إلى أصول الإيمان المذهبية ، ويفكر في التوفيق بين هذه الأصول نوفيقا عذب عن الأنظار إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامي ..

ولم يفصل مالك بن نبي بين شخصية ابن باديس العلمية والذينية وبين شخصيته التربوية والسياسية ، ويؤكد على أن وطنية ابن باديس كانت وراء مشاركته في الأحداث البارزة بين عام ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ م كما كانت وراء نجاحه في إيقاظ الشعور الوطني العام وأن قصائده ومقالاته هي التي أعادت إلى الشعب الجزائري أبعاده الحقيقية في التاريخ الإسلامي .

كما أكد على تكامل شخصية ابن باديس المفسر السلفي الذي يستبطن من الآيات والآحاديث فروغاً ومعانى للهداية والحجة والافتداء وإثبات لزوم الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وأن الإصلاح الحقيقي يبدأ بإصلاح النفوس والضمائر إيماناً بالحقيقة الصادقة ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (١) فتلك أول خطوات الإصلاح الحقيقي .

ويصف مالك بن نبي شخصية ابن باديس المفسر حين يقول :

إنه عندما يفسر إنما يمدنا بصورة ما من طيف ذاته ، فالذى يتكلم إنما هو الذاب عن الدين والناقد الاجتماعي والعالم المحقق والمصلح .. الذي يعبر عن الحقيقة القرآنية بوصفها حقيقة متكاملة تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو ما يعبرون عنه بالدين والدولة أو الدين والدنيا معاً (٢) .

(١) الرعد : ١١ .

(٢) راجع مقدمة : ابن باديس حياته وآثاره د/ عمار الطالبي م ١ ج ١ ، طبعة الجزائر عام ١٩٦٦ ،

ويحدثنا الدكتور عمار الطالبي عن شخصية ابن باديس في شمولها وراثتها وقدرته الفائقة في التعبير عن أزمة المجتمع العربي ، وأنه في هذه الملامح لا تثنى شخصيته سوى شخصية جمال الدين الأفغاني ثم يتناول جوانب شخصية ابن باديس مع التركيز على الناحية العلمية والتربوية وقدرته على فهم مكونات النفس البشرية والتعامل مع العصر وفهمه العميق لمتغيرات الواقع وثوابته ، ويؤكد ذلك الدكتور الطالبي فيقول :

إن ابن باديس قدم تفسيراً سلفياً للقرآن راعى فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقرآن وبيان السنه له وعلى أصول البيان العربي وسننه والنفاذ إلى لغة العرب وآدابها وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنساني وتطور التاريخ والأمم.

.. وهو ققيه ومحدث من الطراز العالي لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست^(١) .

وفي هذا الإطار ظهرت منهجية ابن باديس في رد الفروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها مؤكداً على أن كتاب الموطأ للمالك هو خير مناهج الاستدلال .

* وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه، وخطيب يستولى على النفوس ويملك العقول.

* وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع ويدعو للنهضة والحضارة ويغرس الحب وأصول الأخلاق التي هي جوهر المدنية وهذا ما يؤكد ابن باديس بنفسه حين يقول : أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان ، فاعملوا

(١) راجع في ذلك : ابن باديس : من هدى النبوة في شرح وتفسير الأحاديث النبوية.

للأخوة ولكن مع كل من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة^(١) .

* وهو صحفي قدير يقضى ليله فى قراءة المقالات والجرائد وما صدر فى الدول العربية والأوربية عن العرب والمسلمين باللغة الفرنسية فيرد عليها ويناقشها .
* وهو مؤرخ يحلل الحضارة ويكتب فى أصول السياسة الإسلامية وله نقد لبعض آراء ابن خلدون فى المقدمة وهو الجزء الخاص بالحضارات .

* وهو صوفى زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم، ويتأثر كثيراً بآراء الغزالي فى الإحياء حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء (كتاب الفقه النفسى)، كما تأثر بأبى بكر بن العربى وخاصة كتاب العواصم من القواصم والذى نبهه إلى أهميته أستاذه النخلى القيروانى، فاستنسخه ابن باديس وحققه وطبعه على نفقته الخاصة ..

* وهو صاحب منهج تحليلى يقوم على النظر العقلى استحابة لدعوة القرآن إلى النظر فى تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبدل لها ولا تحوّل، وكان يعتقد بأن المدارك الإنسانية التى تمتاز بقوة التحليل والتركيب هى التى تجعلها تتغلب على الطبيعة وتسخرها وأن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات وأنه لا ينبغى الوقوف عند مجرد المحسوسات .. فالجمع بين المشاهدة والعقل هو المنهج العقلى والتجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .. وفى هذا يقول ابن باديس : لقد علمنا الله ألا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية بل نعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا ونجعل عقولنا هى المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير^(٢) . .

(١) من كلمته فى حقل ختام تفسير القرآن بكلية الشعب بقسنطينة ١٩٣٨ م .

(٢) راجع مقالات ابن باديس فى المنتقد والشهاب - وفى آثار ابن باديس م ١ ج ١ ص ٩-٩٧ .

ثالثاً : أهمية دراسة ابن باديس :

ترجع أهمية دراسة ابن باديس إلى أنه :

١- هو المدخل الرئيسي لأى دراسة علمية أو تربوية تتعرض للحياة العقلية والثقافية للمغرب العربى فى العصر الحديث ، وهو الشخصية المحورية للثقافة العربية عامة بما قدمه من آثار وأفكار فى العلوم الإسلامية والتربوية ، بالإضافة إلى مجال الأخلاق والسياسة والبناء الاجتماعى بوجه عام والتي كان لها أثرها الفعال فى النهضة والثقافة والاستقلال.

٢ - هو النموذج الحى المعبر عن التفكير الإسلامى المعاصر الذى يجمع فى اقتدار وفهم بين السلفية والمعاصرة بوصفها سمة بارزة من سمات الفلسفة الإسلامية والامتداد الطبيعى الذى قدمه رجال الفكر الإسلامى ابتداء من الكندى والفارابى وعلماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة وأهل سنة وغيرهم ..

٣ - هو الذى قدم المنهج الإصلاحى الشامل وفق خطوات محددة وواضحة بدأت بدراسة الواقع الفعلى بعناصره السلبية والإيجابية، ثم التحليل العلمى والمنطقى لقضايا المجتمع السياسية والاجتماعية، ثم تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق الإصلاح وبعث الشخصية العربية فكان يستخلص من كل قضية المبادئ العامة التى تقوم عليها والأسس التى يجب الالتزام بها وفى مقدمتها الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات^(١) .

٤ - هو واحد من رواد الفكر والثقافة فى العالم العربى ، وأحد الأفياد الذين حملوا مشعل الحضارة والعلم والنهضة والتنوير، فلا بد من الاهتمام به ودراسته لأن فى ذلك اهتمام بدراسة جانب هام من تراثنا الفكرى والحضارى، ويعكس الطابع الشمولى فى التفكير الإسلامى حيث تنوعت اهتمامات ابن باديس لتشمل كل

(١) محمد الميلى : ابن باديس وعروة الجزائر ص ٢٢ / ٢٣ ، ٤٠ ط ١٩٧٣ .

جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، فهو رجل دين ومفسر ومصالح اجتماعي وأخلاقي وفيلسوف إسلامي وفوق ذلك هو أديب وصحفي ومفكر عملي وثائر وطني (١).

* فهو كرجل دين كان له منهجه في الإصلاح الديني والروحي يبدأ بإصلاح النفس ومكوناتها الأساسية وفي مقدمتها الضمير والعقل والإرادة وأن هذا المنهج لا يقل بحال عن منهج الإمام محمد عبده ورسيد رضا وغيرهم ممن سبقه في مجال الإصلاح ليؤكد من خلال تفسيره للقرآن والحديث على أهمية وعالمية التفكير الإسلامي ودوره في إمكان تحقيق الوحدة والقوة والسلام.

* وهو كرجل سياسى كان له دوره الفعّال أيضا في بناء وطنه ونهضته وساهم من خلال صحافته ومقالاته ومواقفه في بناء الوحدة والشخصية والقومية... وحدد بوضوح قواعد ونظام الحكم الإسلامى وكيفية تطبيقه والاستفادة من تاريخ وحضارة الدولة العربية الإسلامية .

* وهو كفيلسوف أثبت أن هناك فلسفة إسلامية قرآنية يجب النظر إليها نظرة جديدة ودراستها بعناية لوضعها في مكانها الصحيح بين فلسفات العصر الحديث .. كما كان له موقفه من المشكلة الأخلاقية وتكوين الخلق ، وهو موقف يقوم على الربط بين الأخلاق والدين وهو ما يتعارض مع بعض المدارس الأخلاقية التي ترى ضرورة فصل الأخلاق عن الدين وفسروا السلوك من هذه الناحية .

* فكان ابن باديس مصلحاً ومفكراً وفيلسوفاً عملياً يقول ويفعل ما يقول، ويؤمن ويطبق ما آمن به ،وهنا تكمن عظمة ابن باديس وعظمة الفكر الإسلامى

(١) أنور الجندى : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا - الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥، ص

الخالص أيضا^(١) .

* وإذا كانت هذه الجوانب تعكس أهمية دراسة ابن باديس عموماً فإن هناك عدة دوافع شخصية كانت وراء اهتمامي الخاص بابن باديس ودراسة آرائه وفي مقدمتها :

أولاً : إن الدراسات السابقة التي تناولت ابن باديس ركزت على الجوانب التاريخية والسياسية وآرائه في التربية والتعليم ومكونات شخصيته العلمية ، وذلك دون الاهتمام بالجانب الفلسفي في تفكيره المرتبط بالمناخ الثقافي العام في النصف الأول من هذا القرن ولذا وجدت من الضروري دراسة الجوانب الفلسفية في فكره والبحث عن روافدها عند الغزالي وأبو بكر ابن العربي قديماً وعند محمد عبده حديثاً .

ثانياً : إن الاهتمام بابن باديس ودراسته كان استجابة لمتطلبات واقعتنا الثقافية والاجتماعي ، وما يعانيه من صراعات أيديولوجية وتضارب المفاهيم وظهور جماعات أنصاف المثقفين ، وصراعات مذهبية وحزبية ، وانتشار بعض النزاعات الإلحادية والمادية وظهور بعض القوى العنصرية المعادية للتيارات الدينية وخاصة الإسلام .

ذلك هو الذي دفعني لمحاولة استلهام آراء ابن باديس في العديد من القضايا والمفاهيم ، وضرورة استخدام العقل في فهم حقائق الدين والجمع بين النظر والعمل الذي يحقق كمال الإيمان .

ثالثاً : إن الاهتمام بابن باديس ودراسته كان استجابة لنداءات عديدة وجهها إخواننا في الجزائر والشمال الإفريقي بضرورة تقديم دراسة متكاملة عن آراء ابن باديس، تكشف عن مكنون منهجه وصميم تفكيره وكيفية الاستفادة من آرائه

(١) محمد الجيلي : ابن باديس وعروة الجزائر ص ٢٢ / ٢٣ ، ٤٠ ط ١٩٧٣ .

التي أصبحت - بلا شك - تمثل تراثاً فكرياً يجب أن نعتى به ونبرزه ونستلهمه في دراستنا .

وابها؛ إن السبب الأول الذي دفعني إلى اختيار ابن باديس موضوعاً للدراسة والبحث هو إعجابي الشخصي الحقيقي بأرائه ومنهجه والذي تعرفت عليه من خلال محاضرات أستاذنا الدكتور يحيى هويدي التي ألقاها على طلبة السنة التمهيدية للماجستير عام ١٩٧٤ . وكانت بعنوان : «الوعي العربي المعاصر» حيث تعرض باستفاضة لابن باديس كرائد من رواد الوعي العربي المعاصرين وموقعه بينهم ودوره البارز في النهضة الفكرية والإصلاح الديني والاجتماعي وكيف عبرت آرائه بصدق عن واقع المجتمع ، وكيف كان على وعي حقيقي بقضايا العصر ، وكيف أثبت أن هناك وعياً مفقوداً يجب أن يعود ووعياً عربياً يجب أن يستيقظ وينبعث في النفوس والعقول .. وأن هذا الوعي لا يقوم على تقليد الحضارة الغربية بل وعي يبدأ من الذات الحقيقية للإنسان العربي ومن إيمانه العميق بحقائق العقيدة وتطبيق الاعتقاد .

ومن هذا المنطلق تولدت رغبتى وكانت استجابتي لتوجيهات أستاذي الدكتور يحيى هويدي بضرورة الاستفادة من آراء ابن باديس في العقيدة والفلسفة والتاريخ ووصفه الدقيق لمستقبل الإنسان العربي وتحليله لواقع الأمة وعوامل قيامها ونهضتها .

الفصل الثاني

العوامل التي شكلت تفكيره

في كلمة ابن باديس بمناسبة ختم القرآن حدد بنفسه مجموعة العوامل التي كان لها أثرها في تشكيل شخصيته وتكوينه الفكري وحصرها في أسرته وبيئته الثقافية ، وأساتذته وزملائه ، والواقع العربي بتغييراته ، ثم حفظه للقرآن الكريم ودراسة علومه ..

وإذا كانت هذه هي العوامل الأولية المباشرة التي شكلت تفكيره فعلاً ، فهناك بعض العوامل الثانوية التي كان لها أثرها أيضاً مثل عمله الصحفي وميله الأدبي ورحلته العلمية إلى تونس وزيارته للبلاد العربية بالإضافة إلى استعداده الشخصي..(١)

أولاً : أسرته :

كانت هي العامل الأول في تكوين شخصيته واتجاهه العلمي وتوجيهه ، لأن أفراد أسرته كانوا من حملة القرآن ، وكانوا ينتمون إلى الطريقة القادرية ، كما كان أبوه وجده من قضاة قسنطينة وعلمائها وهكذا نشأ ابن باديس على خلق العلماء وحب العلم والأخلاق ..

وإلى جانب اهتمام أسرته بتعليمه وتوجيهه وأثرها المباشر في تكوينه كان هناك أثراً غير مباشر للأسرة من خلال الاتصال والتواصل المعرفي والوجداني بين ابن باديس وأجداده واقتدائه بهم .

ويصف الدكتور محمد اليهي عند تقديمه للتفسير الباديسي ذلك التأثير

(١) راجع : آثار ابن باديس : ج ١ م ١ ص ٧٧ وفي مجلة البعث العدد ١٦ إبريل ١٩٣٦ .

تفسير ابن باديس : ص ٨ ، المقدمة .

والاقتداء وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه. فيقول :

ولم يكن ابن باديس امتداداً للتأثير الخارجى وحده (أى الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم) فقط فى مجال الدعوة والإصلاح بل كان امتداداً لجده المعز بن باديس الذى توفى عام ٩٨٤م، وكان له دوره فى مقاومة البدع والضلالات التى أدخلت على الفكر الإسلامى، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية ويدع الشيعة فى إفريقيا ..

ثانياً : البيئة الثقافية :

وقد تمثلت هذه البيئة فى الحركة الفكرية الناهضة فى التأليف والنشر والاهتمام بالعلم والإصلاح والحرية ، فكانت بيئته تموج بتيارات ومذاهب متباينة أبرزها تعدد الحركات الإصلاحية والطرق الصوفية وانقسام أصحاب الرأى إما إلى الوهابية والسلفية وإما إلى المادية الغربية ، فكان على ابن باديس أن يختار الطريق والمنهج الصحيح الملائم لظروف مجتمعه فجمع حوله العلماء وأسس جمعية باسمهم فى محاولة لمواجهة هذه المتناقضات الفكرية واتفاقهم فى الرأى حول ضرورة الرجوع إلى السلف الصالح وتغيير ما بالنفس من آثار الأنحطاط^(١) .

ويؤكد عمار الطالبي على أن الواقع الثقافى الذى عايشه ابن باديس وظهر بعض الشخصيات العلمية المتأثرة بأراء محمد عبده التى نقلتها مجلة العروة الوثقى والمنار إلى المغرب العربى وخاصة الجزائر كان من أبرز العوامل التى أدت إلى تكوين شخصيته الفكرية ..

كما يصف الأثر الإيجابى لزيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر وزيارته للجامع الكبير بقسنطينة فى إحداث الاتصال والتواصل الفكرى ثم ظهور مجموعة

(١) راجع تفصيل ذلك بالمجلد الأول : ابن باديس : حياته وآثاره، ج ١ م ١ ص ٢٥، ٢٧، ٢٨.

من العلماء يحملون أفكار محمد عبده ومدرسة المنار ويقومون بتدريسها ونشرها منهم : عبدالحليم بن سماية ، وعبدالقادر المجاوي ، ومحمد بن مصطفى بن الخوجة وغيرهم .. فهؤلاء كانوا على صلة يرشيد رضا ومدرسة المنار وكانوا يترسون رسالة التوحيد للإمام محمد عبده إلى جانب دلائل الإعجاز للجرجاني والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي بالمدرسة الشيعية بالجزائر..

ومن هنا كان تأثر ابن باديس بهذه البيئة فظهرت منهجيته بوضوح في أسلوبه ودعوته إلى الاهتمام بالعقل والمنهج في رد القروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها ، واهتمامه بأصول الفقه والبلاغة حيث اعتبر أن كتاب الموطأ للإمام مالك هو خير مناهج الاستدلال ولذا قام بتدريسه بعد أن أتم حفظه ، كما حرص على تدريس كتب الأمالي وديوان الحماسة ، وديوان المتنبي ، ومقدمة ابن خلدون ، والعواصم من القواصم ، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة إلى جانب القرآن وعلومه^(١).

وكانت الحركات الإصلاحية في مصر وتونس والجزائر بيئة ثقافية مؤثرة في تكوين شخصية ابن باديس ، حيث الاتصال المباشر بينه وبين رجال الإصلاح خاصة رشيد رضا وأتباع المنار في مصر ، ومع عبدالعزيز الثعالبي في تونس، فكانت هذه الحركات تعبر عن أفكار العصر وتسمى لتحليل الأوضاع الاجتماعية ووضع طرق مواجهتها، فكان ضرورياً تباحث واتفق زعماء الإصلاح حول أسس الدعوة الإصلاحية وكيفية انتشارها وتطبيقها .. فكان التشابه والاتفاق بين منهج وأسلوب جمعية العلماء في الجزائر وجمعية العروة الوثقى في مصر واتفقهم حول :

١- ضرورة أن يكون العلم وسيلة، للبناء الفكري والحضاري وتنمية القوى الروحية للفرد .

(١) آثار ابن باديس ج ١ م ١ ص ٩١.

٢- ضرورة مواجهة الواقع الاجتماعى والخلقى المتدهور الناتج عن انتشار الجهل والبدع والضلالات .

٣- ضرورة توحيد الكلمة فى الخير والسعى إلى الكسب وعمران البلاد مع الاقتصاد فى المعيشة .

٤ - ضرورة نشر العلم والدين والجد فى تحليل كافة العلوم الدينية والتربوية .

٥ - ضرورة القضاء على عوامل الجمود والجهل وبعث الشعور بالحياة والثقة فى الرجال ومن يدهم الحل والعقد .

ولهذا كان حرص ابن باديس على إبراز هدف جمعية العلماء وخطتها وكان يقول بأن التعليم العام لا بد وأن يكون أول ما نهتم به من شئون إصلاحنا ولا بد من انتشار العلم على مستوى العامة مع حرية الفكر واستقلاله، وأن خطة الجمعية علمية دينية هدفها نشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرذيلة وأن القرآن الكريم إماننا والسنن سبيلنا والسلف الصالح قدوتنا.^(١)

ويصف لنا عمار الطالبى هذه البيئة الثقافية المتنوعة التى عاشها ابن باديس فيقول : وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية تمثل جانبا من العوامل الداخلية التى أثارت ابن باديس ورفاقه فإن هناك عوامل خارجية أيضا كان لها أثرها المباشر فى تفكيره وهى ابتداء النهضة فى المشرق وعودة الاتصال الفكرى والثقافى بينه وبين المغرب عن طريق الصحف والكتب والمجلات والصحف، هذا بالإضافة إلى الرحلات العلمية إلى جامع القرويين بالمغرب والزيتونة بتونس والأزهر بمصر، ثم كان من رواد هذه النهضة الفكرية السيد قدور بن مراد التركى الذى أسس المكتبة الشعالبية، والشيخ صالح بن مهنا بمؤلفاته الوطنية والشيخ عبدالقادر المجاوى

(١) راجع : آثار ابن باديس ج ٣ ص ٦١، ٤٦٧، ج ٤ ص ٢٠٦، ٢٠٧، د. محمود قاسم: ابن

باديس الزعيم الروحى ص ٣٧، وفى الشهاب عدد سبتمبر ١٩٣٧ .

بمؤلفاته التربوية والمدرسية، فهذه المؤلفات كان لها أثرها في رجال الإصلاح والنهضة وفي مقدمتهم أستاذ ابن باديس حمدان لونيس، ومن غريب المصادفات أنه في السنة نفسها التي توفي فيها الشيخ عبدالقادر المجاري ابتداء عبدالحميد بن باديس حركته التعليمية بمدينة قسنطينة فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج^(١).

لثالثاً : زملائه وأساتذته :

وهم الذين شاركوه أفكاره ومراحل كفاحه وغرسوا فيه خلق العلماء وتواضع الحكماء وصفات القادة والمصلحين وبفضلهم حفظ القرآن ودرس العلوم والكتب على اختلافها وتنوعها وشارك في الإصلاح والنهضة، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ العربي التبسي، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ العقبي ومبارك الملي أما أساتذته الذين كونوا بيئته التعليمية وتعهدهم بالرعاية والتوجيه فيعترف ابن باديس بفضلهم ويذكر درهم ويقول في ذلك : وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البالغ في تربيتي وحياتي العملية حمدان لونيس القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله..^(٢)

ومعروف أن حمدان لونيس هو الذي درس لابن باديس القرآن وعلومه وأوصاه بالبعد عن الوظائف الحكومية ليتفرغ للإصلاح والنهضة .

أما الشيخ النخلي فكان له فضل توجيه ابن باديس إلى أهمية التفسير واستخدام العقل في التأويل وكيفية التعامل مع أصحاب المذاهب والفرق وهو الذي أوصاه عندما رآه متبهماً من الأساليب التقليدية في التفسير وإدخال البعض

(١) آثار ابن باديس : عمار الطالبي ج ١ م ١ ص ١٨، ١٩، ٢٤.

(٢) آثار ابن باديس ج ١ م ١ ص ٧٩.

للتأويلات الجدلية والاصطلاحات المذهبية فى كلام الله واختلافهم فيما لا
 اختلاف فيه من القرآن، وكانت (على حد تعبير ابن باديس) : وكانت على ذهنى
 بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى فى دين الله وكتاب الله فذاكرت
 يوما الشيخ النخلى فيما أجده فى نفسى من التبرم والقلق فقال لى : اجمل ذهنك
 مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة لیسقط
 الساقط ويبقى الصحيح وتستريح .. فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة فى ذهنى
 أفقا واسعة لا عهد لى بها (١) .

ويصف ابن باديس مدى تأثره بأستاذه محمد الطاهر بن عاشور فيقول : ولن
 أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة عن الأستاذ ابن عاشور وكانت أول ما قرأت
 عليه فقد حببتنى فى الأدب والتفقه فى كلام العرب وشت فى روحاً جديداً فى
 فهم المنظوم والمنثور وأحيت منى الشعور بعزة العروبة كما أعتز بالإسلام .

وكان معروفاً فى ذلك الوقت أن كلاماً من الطاهر بن عاشور ومحمد النخلى
 هما من دعاة الإصلاح ومن أكثر المتأثرين بدعوة جمال الدين ومحمد عبده
 الإصلاحية .

ويرى البعض أن لقاء ابن باديس ومالك بن نبي والتقاء الآراء بينهما فى
 معظم القضايا الاجتماعية ووسائل تحقيق النهضة الجزائرية كان من المؤثرات
 الإيجابية فى الحركة الإصلاحية . (٢)

حيث كان الواقع الاجتماعى بمشكلاته والرغبة فى الإصلاح والتغيير وراء
 اتصال مالك بن نبي بابن باديس ليثب ما يجده فى نفسه من بعض الأفكار المتصلة
 بالمجتمع خاصة فى قرية إفلو .. ويؤكد مالك بن نبي أن معجزة الحياة فى الجزائر

(١) راجع مجلة البصائر العدد ١٦ إبريل ١٩٣٦، وفى آثار ابن باديس جـ ١ ص ٧٨/٧٧.

(٢) راجع ما كتبه مالك بن نبي فى كتابه : شروط النهضة ومشكلات الحضارة وكتابه: مذكرات
 شاهد القرن .. عن إلتقائه بابن باديس ودوافع ذلك اللقاء..

بدأت بصوت الشيخ عبدالحميد بن باديس وندائه فأيقظ المعنى الاجتماعي وحول
مناجاة الفرد إلى حديث الشعب. (١)

وكان إتفاقهما حول الرأى بأن الإصلاح والنهضة إنما يدركان فى إطار
فكرة شاملة وجوهرية هى فكرة الحضارة .. ويؤكد مالك بن نبي أن ابن باديس قاد
الثورة الفكرية مثلما قادها جمال الدين الأفغانى يهدم وينى على أساس منهج
مرسوم حيث بدد التقاليد الثقيلة والطرق الجامدة المخدرة للشعب. (٢)

رابعاً : عمله الصحفى وميله الأدبى :

يوصفه الأسلوب العلمى لمواجهة العادات والخرافات، فكانت الصحف التى
أنشأها ابن باديس بمثابة مرحلة جديدة فى العمل التربوى من أجل الإصلاح
والتغيير ..

وكانت جريدة المنتقد مثالا للفاعلية والتأثير إذ خصصها ابن باديس لنقد
أصحاب الطرق الصوفية الخارجة عن أصول الدين، كما رفعت المنتقد شعاراً عاماً
هو إعتقد ولا تتقد وقد بدأها ابن بايس بمقال إفتاحى لبيان المنهج والغاية بعنوان
:خطتنا مبادئنا وغايتنا وشعارنا وترجع أهمية هذا المقال الإفتاحى إلى أنه يوضح
الهدف والوسيلة وبداية الطريق للإصلاح وتكوين الفكر ..

(١) آثار ابن باديس ج ١ ص ١٦٧/٦٣، ٦٩.

(٢) مالك بن نبي : شروط النهضة ومشكلات الحضارة ج ١ ١٩٤٨. تقديم د. عبدالعزيز خالد بن
ترجمة وطبع بمصر عام ١٩٥٧ تحت عنوان : فلسفة الحضارة وفن الترجمة.

وطبع ببيروت تحت عنوان : حديث نبي أئبنا الجدهد - مشكلات الحضارة مجموعة المحاضرات التي
ألقاها بلبنان وسوريا جمعها وترجم لؤلؤها محمد كامل سقارى - المكتبة المصرية ببيروت.

مذكرات شاهد القرن: مالك بن نبي : المطبعة الوطنية بالجزائر عام ١٩٦٥.

الظاهرة القرآنية : سلسلة مشكلات الحضارة طبعة الكويت ترجمة د. عبدالصبور شاهين ج ٣ ،

واففتح ابن باديس المقال : باسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين معظم المسؤولية التي تحملها فيه مستهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون. والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ..

ثم تحدث عن المبدأ السياسى والمبدأ التهذيبى والمبدأ الإنتقادى وبين غاية النقد وطريقته بقوله : إننا لا نتعرض للأشخاص فيما يختص بأحوالهم الشخصية وإنما يتوجه النقد إلى سلوكهم الذى يمس شئون الأمة .. فتتقد الحكام والمدبرين والتواب والقضاة والعلماء والمقاديم وكل من يتولى شأنًا عاماً من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسين والوطنيين، وتناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين ونصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه والتتديد بظالمه كما من كان لأننا نلظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم فإذا قمنا بالواجب فلأشخاصهم منا كل إحترام، ولهذا كان الشعار الرسمى لجريدة المنتقد هو : الحق والوطن، الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شىء^(١).

ويرى عمار الطالبي أن التشابه كان واضحاً بين المنتقد والعروة الوثقى حتى أن المنتقد قد توقفت عن الصدور بعد ١٨ عدداً مثل العروة الوثقى تماماً .

وأن كليهما ذا إلتجاه ثورى نقدى وتربوى ويهتم بالقضايا الإجتماعية والسياسية وكلاهما يصدران عن روح واحدة وإرادة قوية وحماسة لتؤدى رسالة اليقظة والوعى ..

وبعد جريدة المنتقد أصدر ابن باديس جريدة الشهاب لضمان إستمرار سياسة الإصلاح والتربية، فكان الشهاب مجلة علمية تربوية تعالج شئون الشباب والنهضة والتعليم والرقي بشعون المسلم الجزائري وكان شعار الشهاب وهدفه تحقيق الإصلاح

(١) قد توقفت المنتقد عن الصدور فى نوفمبر ١٩٢٥ بعد صدور ١٨ عدداً منه .

راجع آثار ابن باديس جـ ١ م ١ ص ٨٦ / ٨٢ . وفى المنتقد ع ١ ص ١ .

الدينى والدنيوى وفق مبدأ ثابت هو لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .
وهو قول ينسب إلى الإمام مالك أورده فى الموطأ .

وحرص ابن باديس على إبراز شعار الجريدة وهدفها الخلقى والإجتماعى فكان شعار الغلاف الحق والعدل والمؤاخاة فى إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات .

وكانت الشعارات الأربعة التى كتبت على الجوانب الأربعة للغلاف هى :

(١) العدالة والأخوة والسلام .

(٢) قل هذه سبيلى أذعو إلى الله أنا ومن أتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين^(١)

(٣) أذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن^(٢)

وكانت مقدمة المقال دعوة لضرورة الإعتماد على النفس والتوكل على الله فبدأ المقال بقوله : تستطيع الظروف تكييفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا . وكانت آيات القرآن وبعض التفسيرات والأحاديث تتصدر الصفحات الأولى لها^(٣)

وكان آخر الأعداد فى صدورها فى سبتمبر ١٩٣٩ شعبان ١٣٥٨ .

وبعد جريدة المتقدم والشهاب أصدر ابن باديس العديد من الصحف كالمسنة والشريعة والصراط والمجاهد والبصائر وغيرها، ولهذا كانت الصحافة فى عمومها سواء تلك التى أنشأها أو غيرها من الصحف الجزائرية والعربية كان لها تأثيرها فى تكوين شخصية ابن باديس الفكرية والأدبية وكان من أبرز هذه الصحف المؤثرة فى

(١) يوسف : ١٠٨

(٢) النحل : ١٢٥

(٣) آثار ابن باديس ج ١ م ١ ص ٨٧/٨٣ .

حركة النهضة جريدتى الحق والفاروق التى أسسها عمر بن قنور الذى يعتبر من المدرسة الإصلاحية المتأثرة بأراء محمد عبده ومدرسة المنار ..

ولقد استطاع ابن باديس من خلال عمله الصحفى تصوير وتحليل الواقع العربى والجزائرى المتغير بمشاكله السياسية والإجتماعية والتى عاشها وتفاعل معها وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وتمكنت صحافة ابن باديس من تحديد عوامل النهضة ووصد حركات الاستقلال وتوجيهها، وتحديد أسباب الركود والجمود وعلل التخلف والجهل ووسائل الإصلاح والتطوير، وكيفية تنفيذ برامج الإصلاح والتربية وكيفية توجيه الطاقات للمحافظة على الشخصية العربية والروح الإسلامية ، ولهذا قيل بأن معايشة ابن باديس لواقعه وتعبيره الصادق عن متطلباته وحاجاته هو التعبير الصادق عما يختلج فى النفوس من قلق وأمل .. وكانت هذه المعاشة هى دافعه لوضع اللبانات الأولى لحياة ثقافية نشطة كما كانت من أهم المؤثرات فى تكوين شخصية ابن باديس التربوية والأدبية .

خامساً : سيادة الاتجاه السلفى:

واتشار آراء ابن تيممة وأبو بكر ابن العربى والغزالى وظهر مجموعة من السلف المعاصرين لابن باديس أمثال محمد عبده وبعض زعماء الإصلاح، كان لذلك أثره الكبير على شخصية ابن باديس واتجاهه العقلى، حيث ظهر تأثره واضحا بأصحاب الاتجاه السلفى وخاصة الغزالى، حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء اسم كتاب الفقه النفسى . كما تأثر بأراء أبوبكر بن العربى وخاصة كتابه العواصم من القواصم والذى قام ابن باديس بشرحه وتفسيره وطبعه على نفقته الخاصة لتدريسه لتلاميذه، وظهر تأثر ابن باديس بالاتجاه السلفى فيما كتب عن العقائد والتفسير كما ظهر ذلك فى كتابه عن العقائد الإسلامية وإعتماده على الأدلة النقلية والعقلية فظهر مدى تأثره بابن تيممة ونزعتة السلفية حتى أن ابن باديس وصفه بأنه المجدد الوحيد والمصلح فى شيخوخة الفكر الإسلامى ..

كما ظهر تأثر ابن باديس بالأجته السلفى المعاصر الذى دعا إلى ضرورة الإعتماذ على العقل فى فهم القرآن والحديث، ودعا إلى ما دعوا إليه من ضرورة لرجاع الأمة إلى الحقيقة القرآنية ونبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى .

ولهذا كان سيادة هذا الإته من أهم العوامل التى شكلت تفكيره وأثرت فى حياته وشخصيته مما إنعكس بوضوح أثناء تدريسه وتفسيره وأثناء مواجهته للطرق الصوفية حتى قيل بأن ابن باديس بعقلانيته وسلفيته كان نموذجاً صادقاً للصوفى المؤمن والإنسان الزاهد على حقيقته لا كمتصوفة عصره وزهادهم . (١)

وقد ظهرت سلفيته واضحة منذ بداية نشأته العلمية وإعلانه بأن هدفه الأول من كل حياته هو لرجاع الأمة الجزائرية إلى الحقيقة القرآنية .

- بوصفها منبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى، وأن همه أن يكون رجالاً قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة .. وكان القرآن وعلومه هو القاعدة الأساسية التى تركز عليها جميع التعاليم التربوية والدينية والخلقية والسياسية أيضاً .

كما ظهرت سلفيته أيضاً حين ابتداء بتدريس كتاب الشفاء للقاضى عياض، وإحياء علوم الدين للغزالي والمواصم من القواصم لأبى بكر العربى، ثم إتصاله المباشر برجال الفكر الإسلامى فى العالم العربى وكانوا فى غالبيتهم ذا إته سلفى..

كما ظهرت سلفيته أيضاً فى تمسكه الشديد بالنص وتأويله الذى لا يخرج عن الأصل، ولذا رفض ابن باديس مطلق التأويل وأن تأول النصوص حسب المذاهب والأهواء، ورأى أن كثرة التأويلات وتناقضها كان وراء ظهور الخلافات وتعدد الفرق وإتساع الصراعات واقتراق المذاهب إلى شيعة وأهل سنة وفلاسفة

(١) راجع : عمر بن قنية : ابن باديس رجل الإصلاح والتربية وفى آثار ابن باديس ج ١ ص ١٠

ومتكلمين ومعتزلة، وحاول إثبات أن التأويل بطريقتهم لم يصل بنا إلى حقيقة ثابتة كحقيقة القرآن، لأن التأويل عادة ما يختلف من عصر إلى عصر ومن فرد إلى فرد ومن مذهب إلى آخر ومن جيل إلى جيل وذلك لأن الفرد يحكمه مزاجه الخاص والجيل يحكمه تقاليد وارتقاؤه العقلي أما الأصل في الكتاب والسنة لا يتأثر بفرد ولا جيل لأنهما حقيقة لا تقبل الجدل أو التأويل، وكانت سلفية ابن باديس واضحة في إستلهامه للمنهج القرآني في الرد والحجاج وتفسير القرآن بالقرآن والإعتماد على الوصف والقصص القرآني وما تنطوي عليه الآيات من الدعوة إلى النظر في تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبدل لها ولا تحوّل.. وكان منهجه السلفي معتمداً على بيان القرآن للقرآن وبيان السنة له وعلى أصول البيان العربي وقوانين النفس البشرية وسنن الإجتماع الإنساني وتطور تاريخ الأمم^(١).

ويشير مالك بن نبي إلى أثر سلفية ابن باديس في ثورته الفكرية ونجاحه في تبييد ما كان مخيما على الجزائر من تقاليد ثقيلة متمثلة في إبداعات وعبادات وأفكار الطرق الجامدة المخدرة للشعب، كما يشير إلى أثر الحركات الإصلاحية وتنوع المذاهب الفكرية في تكوين شخصية ابن باديس وإرتباطه بدعوة الإمام محمد عبده ورشيد رضا .

أما عمار الطالبي فيرى أن هذا الإرتباط والألتجاه السلفي لابن باديس لم يمنعه من توجيه النقد لبعض هذه الحركات الإصلاحية أو الدعاوى السلفية، خاصة وأن أصحاب هذه المذاهب وإن أخذوا بفكرة الإصلاح الديني الذي يعتبر نقطة إنطلاق في كل تغيير إجتماعي إلا أنها ابتدأت بمرحلة علم الكلام التي هي المرحلة الفكرية أو العقلية وتخطت المرحلة الأخلاقية الروحية التي تؤدي إلى أول

(١) آثار ابن باديس ج ١ ص ٦٧، ٩١، ٩٢ وفي الأصالة ومحمد المبلى : ابن باديس وعروة الجزائر ص ٩، ١٠.

تغيير حقيقى للقيم الإجتماعية فقد رأى ابن باديس ورفاقه أن تلك مزلة لا تؤدي إلى الوعي بقدر ما تؤدي إلى تعلم جدليات الكلام ، وأنه خطأ منهجى أدى إلى عدم تسجيل هذا الإصلاح فى نسق الأحداث التاريخية التى تقرر مصير الجماعات الإنسانية.^(١)

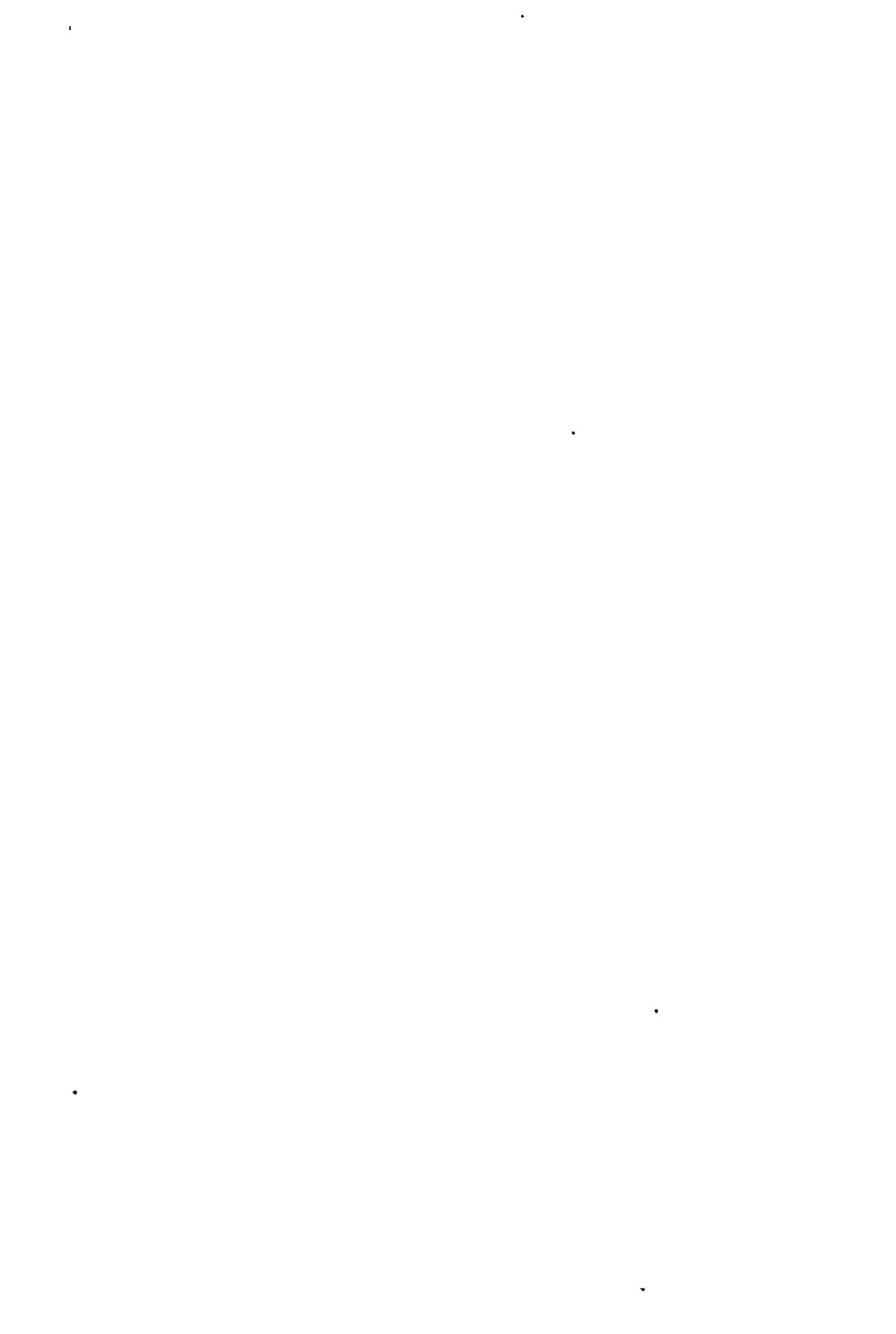
سادساً : منهجية القرآن وشموله :

رغم تعدد العوامل والمؤثرات التى صاغت منهجية ابن باديس وشكلت شخصيته فإنه يؤكد على أن القرآن الكريم كان العامل الأول والعام فى تكوين شخصيته بل وحياته الفكرية كلها لأنه أول العوامل وأسبقها وأهمها أثراً .

ويصف عمار الطالبي دور القرآن فى توجيه ابن باديس وتكوينه فيقول :
والعامل الأخير الذى يفوق جميع العوامل الأخرى، والذى كرس له ربع قرن من حياته هو القرآن الكريم الذى صاغ نفسه وهز كيانه واستولى على قلبه فاستوحاه فى منهجه طوال حياته وترسم خطاه فى دعوته ونابجائه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ويتأمله فيعى منه ويستمد علاج أمراض القلوب وأحواء النفوس وبذئب نفسه، ويبيد جسمه الهزيل فى سبيل لرجاع الأمة الجزائرية إلى الحقيقة القرآنية ومنيع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضارى، وكان همه أن يكون رجلاً قرآنين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة، ولذلك جعل القرآن قاعدة أساسية ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجليل، وتلك الحقيقة التى يؤكد عليها ابن باديس حين قال: إننا والحمد لله نرى تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم^(٢) .

(١) مالك بن بنى : وجهة العالم الإسلامى ط القاهرة ١٩٥٩، ص ١٧٤ وفى آثار ابن باديس ج ١ ص ٦٨، ٦٩ .

(٢) ابن باديس : حياته وآثاره ج ١ ص ١٠٧٩ .



الفصل الثالث

ابن باديس المصلح الفيلسوف

ابن باديس المصلح الفيلسوف حقيقة واقعة أثبتتها وانفق عليها كثير من رواد الفكر والفلسفة والأدب في مصر والعالم العربي كما أثبتتها فكر ابن باديس نفسه ومنتجه الشامل في الإصلاح الديني والأخلاقي والإجتماعي، حيث ظهر بوضوح مدى التشابه بين قواعد المنهج الإصلاحى الشامل الذى قدمه ابن باديس وبين التسق الفلسفى الذى يقدمه الفلاسفة .

ولأن الإصلاح بمعناه العام هو التغيير الإيجابى فى سلوك أفراد المجتمع من أجل صالح الإنسان، وسعى دائم من أجل تحقيق ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع بالفعل، فمن هذه الناحية أمكننا القول بأن ابن باديس مصلح وفيلسوف كما كان غيره من الفلاسفة مصلحين حيث حاولوا بفلسفتهم إصلاح الفكر والسلوك والعقيدة وبناء الإنسان ..

ولتأكيد ذلك راجع آراء كل من عمار الطالبي، البشير الإبراهيمى وتركى رابع ومالك بن نبي، وعمر بن قتيبة، ومحمود قاسم ويحيى هويدى ومصطفى حلمى، وأنور الجندى وغيرهم .

فهؤلاء يؤكدون على أن :

١- أن فكرة الإصلاح وصياغتها المنهجية هى فكرة فلسفية من الدرجة الأولى، كما أن غايتها أيضا غاية فلسفية وهى السعى لتحقيق رغبات الإنسان وتطلعاته.

٢- إنه كان يمثل بالنسبة لأمتة المخلص والنور والمصلح الذى يهديهم ويقودهم فى الطريق إلى مستقبل أفضل، وأن أثر أفكاره الإصلاحية قد تخطى حدود الشمال الإفريقى وعصره عبر مدارس الإصلاح التى إنتشرت بعد وفاته تتبع

منهجه في الإصلاح والدعوة وسميت إحداهما بالمدرسة الباديسية في الإصلاح .
كما يؤكدون على أثر هذه المدرسة الواضح في النهضة والحضارة المعاصرة .

٣ - في كل مناسبة علمية تعقد المناقشات لدراسة آراء ابن باديس في التربية والسياسة والأخلاق وبناء المجتمع وإيقاظ الوعي، تؤكد على أنه المصلح الفيلسوف، فمن أجل الإصلاح قام بتفسير القرآن وتفسير الأحاديث، وقام بتحليل أحداث التاريخ وأطوار الأمم ووضع تصور للأمة العربية ومستقبلها، ومن أجل الإصلاح كان إشتغاله بالصحافة واهتمامه بالشعر، ومن أجل الإصلاح كانت جميع آرائه ومواقفه بل حياته كلها وروحه .

أولاً : ابن باديس فيلسوف المنهج :

منهج ابن باديس عبارة عن النسق الفلسفي الذي قدسه وآمن به وطبقه بعد بنائه على أسس من الموضوعية والعلم، وأقامه على عدة قواعد ومبادئ وخطوات محددة في إطار عام يتشمل في : إصلاح اللغة والتعليم، والجمع بين الدين والدنيا، والتخلص من التبعية للإستعمار، القضاء على عوامل التخلف، إصلاح الإنسان وبنائه، الدعوة بالتى هي أحسن، التفاوض، الجمع بين القول والعمل .

ولتحقيق ذلك كان عليه وضع عدة مبادئ أساسية ومخاور للإصلاح الشامل هي المبدأ الدينى، المبدأ الأخلاقى، والمبدأ السياسى، والمبدأ الاجتماعى* .

والواقع فإن هذه المبادئ هي التى جعلت من المنهج الباديسى منهجاً شاملاً يدور حول إطار أخلاقى عام مؤلف من مبادئ عامة ثابتة هي الحرية والعدالة والأخوة والسلام بوصفها قواعد ومبادئ ثابتة تتميز بالشمول والعموم لتوافق عموم المنهج واستمراره .

* انظر الجزء الثانى من هذا البحث في فلسفة ابن باديس العملية ومنهجه الإصلاحية.

ومن هذه الناحية تميز المنهج الباديسى عن غيره من المناهج وخاصة تلك التى حاول تقديمها رجال الغرب من أصحاب الإتجاهات الإصلاحية أو البنائية، فمنهم من اعتبر الإصلاح السياسى هو أساس كل إصلاح وتغيير، ومنهم من اعتبر الإصلاح الأخلاقى هو الأساس فى بناء الإنسان وآخرون رأوا فى الإصلاح الإجتماعى غاية كل إصلاح ، ورأى آخرون أن الإصلاح الإقتصادى هو الأساس فى بناء المجتمع وصلاحه ..

ورأى آخرون أن تدهور المجتمع يرجع فى الأساس إلى تدهور الجانب الروحى والخلقى فى الإنسان ويمثلهم إيراكهارت وتولستوى وغيرهم .

فهؤلاء نظروا إلى مشكلة المنهج والإصلاح نظرات جزئية وحاولوا الإهتمام بجانب واحد من الجوانب ولم يهتموا بشمول المنهج وعموم المشكلة .

أما إبن باديس فقد إستلهم شمول منهجه من شمولية القرآن واهتمامه بالإنسان ككل واهتم بمبادئ الإصلاح العامة التى يتوجه بها الخطاب القرآنى للناس جميعاً، فكان منهج إبن باديس الشامل لجميع جوانب الإصلاح الدينى والأخلاقى والاجتماعى والسياسى .

(١) العلم والدين :

أسس إبن باديس منهجه الإصلاحى على أساس الربط بين العقل والدين، أو بين النظر والعمل، مؤكداً على أن إصلاح الإنسان يتوقف على إصلاح العناصر المكونة له وفى مقدمتها العقل والقلب وأن العقل السليم وإستخدامه فى الفهم والتحليل وإدراك الحقائق هو سبيل تنقية الدين من العناصر الدخيلة عليه .

وفى هذا الإطار كانت دعوة إبن باديس لاستخدام العقل وإصلاح النفوس وبث الثقة والأمل فى النجاح والإصلاح والتقدم، وأن تحقيق ذلك يتوقف على سلامة اللغة والدين والخلق والعلم قبل كل شىء .

لم يقف ابن باديس عند حدود الفكر النظري المثالي بل تجاوزه إلى واقعية الحياة بإيمانه الراسخ بتسيير الزمن ومساوقته سنكر فكانت موائفه العملية من أجل إحداث التغيير الاجتماعي بربيع الظلم من شبه ريث الوعي وسخاوته الحادة لاترك أسباب الانحطاط وتحدد الوسائل الموصلة للقضاء على التخلف والجهل، ومن ثم كان الجمع بين النظرية والتطبيق من أهدم ملامح منتهجه على اعتبار أن النظرية سابقة على الفعل وأن العقل مساوق للفن غير منفصل عنه .

وبالفعل بدأ ابن باديس مرحلته النظرية بتساؤلات فلسفية تعبر عن أهدافه وحقيقته موقفه والمنهج الذي يريده فكانت تساؤلاته ..

- من نحن ؟ ما هي حقيقتنا في هذا العالم ؟ ومن تكون الجزائر؟

- ما هي حقيقة الوطن وعلاقاته بالوطنية ؟ ومن عم العرب ؟

- ما هو طريق المستقبل ؟ من أعيش ؟ وما معنى الحياة ؟

ولقد أطلق البعض على هذه المرحلة إسم الكشف عن الحقيقة لاطهارها أو مرحلة المكاشفة أي مكاشفة الذات لنفسها ومكاشفة الواقع للذات .

أما التطبيق العملي للأفكار فتد بدأ بتبوية هذه الآراء وإعدادها للتطبيق الفعلي، فبدأ بمرحلة الإعداد وهي مرحلة التعنيم للشباب، ثم مرحلة كشف أسباب التدهور الاجتماعي والأخلاقي والذي أرجعه ابن باديس إلى الجهل وفصل العقيدة عن العمل وتدهور العقيدة في قلوب العامة وتطرق الشرك الحثي

وبكذا أكد منهج الإصلاح الباديسي على الطابع المميز للفلسفة الإسلامية بوصفها فلسفة توفيقية تقوم على الجمع بين العقل والنقل أو بين الدين والعلم وتعمل على توفير مطالب الجسم والروح والفكر والواقع في إطار شمولي محدد المعالم (١).

(١) محمد الميلى : ابن باديس وعروة الجزائر ص ٤٠ .

(٢) المبدأ الأخلاقي :

أقامه ابن باديس على أسس أنه لا فاصل بين المعرفة والسلوك، وأن حسن الطاعات وقبح المعاصي مركوز في العقول، وأن الله أعطى للعقل الإنساني قدرة يميز بها بين القبيح والحسن وبين الرذيلة والفضيلة حتى يسهل عليه إتباع الشرائع التي أوصى بها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وحتى يترتب الثواب والعقاب على إختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح .

فالعقل هنا لا يحسن ولا يقبح بل يميز ويحكم ويوجه، وعلى ذلك فالفضيلة إنما كانت فضيلة لحسنها وكمالها، والرذيلة إنما كانت رذيلة لقبورها ونقصها والإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهية النقص (١).

ولتطبيق هذا المبدأ كان ابن باديس مسئولية نظير الفضائل الأخلاقية ووضعتها في صورة وصايا وتعاليم واجبة التنفيذ لأن عليها يتوقف صلاح الإنسان وسعادته، وهي واجبة لأنها مستمدة من توجيهات وأحكام إلهية كالإيثار والصر والثبات والجهاد والشجاعة والصدق والتسامح والرحمة والحب وغيرها من صور الفضائل التي تسهم في تحقيق السعادة ونجاح الصفاء لمن يتحلى بها ويقوم بتنفيذها .

والمسأمل في آراء ابن باديس في النفس والفضائل الخلقية يلحظ مدى إهتمامه بالإنسان وإصلاحه، وفي هذا الإطار .

- يقسم ابن باديس النفس إلى نفس خيرة وأخرى شريرة وأن صلاح الإنسان - فساده إنما يتوقف على صلاح نفسه أو فسادها .

(١) راجع في ذلك تفسير ابن باديس ص ١١٩، ابن باديس الرعييم الروحي، د. قاسم ص

- أن صلاح النفوس لا يكون بالشدة بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة والمحبة فذلك هو الطريق لإصلاح النفوس والتأثير فيها .
- أن الكمال الإنساني مرتبط بالكمال الأخلاقي وكلاهما مرتبط ومستمد من الكمال الإلهي وأن تدرج الإنسان في سلم هذا الكمال يوصله إلى السعادة الحقيقية
- أن التغيير والإصلاح لا يتحقق إلا في إطار الأركان الأربعة وهي الحرية والعدالة والأخوة والسلام على أساس من تطبيق مبدأ الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات* .

(٣) المبدأ الاجتماعي :

هو أساس كل منهج إصلاحى، وعند ابن باديس لا نستطيع أن نميز بين المبدأ الأخلاقي والمبدأ الاجتماعي وذلك لأن التغيير الفردي هو سبيل تغير المجتمع وصلاحه وأن الفضائل الأخلاقية في إنتشارها والتحكك بها هي أهم عناصر التماسك والتكامل الإجتماعي كالتعاون والصبر والجهد والحكمة والشجاعة والتفاهم والرحمة والصدق وغيرها فجميعها تظهر وتتحقق عند تبادل المصالح والمنافع الاجتماعية المشتركة .

ولهذا كان إهتمام ابن باديس بتدعيم عوامل الإرتباط والتفاهم الإجتماعي من خلال رابطة اللغة والدين القومية، ثم محاولته القضاء على الآفات الإجتماعية والنقائص الخلقية التي تعيق التغير والتطور بعد تشخيصها ومعرفة طرق علاجها والقضاء عليها ..

ومن طريف تشخيصه لهذه الآفات قوله : الناس كالنبت معرضون في حياتهم إلى عدة آفات يكادون لا يسلمون منها ، فمنها ما يصيب الأبدان ومنها ما

* راجع : الجزء الثاني : الفصل الثاني حول منهج الإصلاح الأخلاقي.

يصيب الأموال وبعضها ما يعم ذلك كله، ولا يسلم المجتمع البشرى إلا بمحاربتة هذه الآفات كلها . فالآفة التي تصيب المجتمع كالأفة التي تصيب النبات .

ثم يعدد ابن باديس هذه الآفات وأخطارها وفي مقدمتها المخططات الإستعمارية، وعدم الإلتزام بمبادئ الإسلام وعدم تطبيقها والجهل بالحقائق، والإنفصال عن الحقيقة القرآنية، والخوف والإستسلام للظلم، والمفاسد الأخلاقية كشرب الخمر والميسر والبطالة وغيرها مما يفسد على الناس عقولهم ويضيع أموالهم وتلف أبدانهم، ثم الطريقة الخارجة عن الدين بما تقوم به من أعمال يجرمها الشرع وينكرها العقل وتحجرها القوانين .^(١)

ولتحقيق المبدأ الإجتماعي :

- ١- اشترط في المصلح التفرغ لمهمته والبعد عن الوظائف الحكومية .
- ٢- توافر أدوات التنفيذ كالعلماء ورجال الدين والصحافة بوصفها الوسائل الفعالة لإحداث التأثير والتغير المطلوب .
- ٣- لا بد من الشعور الوطني المتمثل في الولاء والإتحاد والتضامن من أجل ذلك دعا ابن باديس إلى عموم التعاطف والتراحم، وما يوحد بين الأجناس من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة .
- ٤- الدعوة لتحقيق التضامن الإنساني العام وفق مبدأ الإحسان لأن الإحسان إلى واحد هو إحسان للجميع والإساءة إلى واحد هو إساءة للجميع لأننا نحب الإنسانية ونحب من يحبها ويحترمها ونبغض من يبغضها ويظلمها .
- ٥- السعى لتحقيق العدل العام مع العذر والصدق .
- ٦- السعى لتحقيق وحدة الأديان والأوطان، لأن الإسلام بوصفه دين الفطرة هو دين الإنسانية والوحدة والاعتصام وهو السبيل لتحقيق سعادة الإنسانية

(١) مجلة الأصالة العدد ٤ ص ٥٦ .

وخدمتها وخيرها، ويؤكد ذلك ابن باديس بقوله: إن الإسلام ليس وحده ديننا للبشرية ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، وأن للأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية ولكل دين من أديانها حق من الإحترام.

٧ - السعى لتوفير وسائل المساعدة الإنسانية من أجل تحقيق النفع للبشرية وأن المبدأ الإجتماعى مبدأ إنسانى عام، ويقول ابن باديس فى ذلك : إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحذب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمى إليه وهذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليست من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة فوجب التفكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع (١).

(٤) المبدأ السياسى :

يمثل الجانب التطبيقى فى المنهج الإصلاحى، وكان ابن باديس بنفسه هو المنصر الفعالم والأكثر إيجابية فى مجال المنهج الإصلاحى الشامل ، ويؤكد ذلك الأستاذ محمد الميلى فى كتابه : ابن باديس وعروبة الجزائر حين يقول : إن من العوامل التى تدفع إلى الإعتقاد بأن لابن باديس فلسفة متكاملة (بالمعنى الحديث) هو إرتباط تفكيره السياسى مع تفكيره الإنسانى وإرتباط هذين مع تفكيره الإصلاحى الدينى، وإرتباط الجميع مع الخطة التى يراها صالحة للخروج من التخلف وبالتالي لتحقيق مواجهة ناجحة مع الاستعمار . (٢)

ولبيان أهمية المبدأ السياسى فى المنهج الإصلاحى أشار ابن باديس إلى أهمية نظام الحكم ومكوناته وشروط نجاحه ووضع الأصول العامة للحكم والتى يمكن استنباطها من أصول الحكم فى الإسلام، وفى هذا الإطار أوضح ابن باديس:

(١) آثار ابن باديس : عمار الطالبي جـ ٣ ص ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٧٨.

(٢) ابن باديس وعروبة الجزائر : محمد الميلى ص ٨٥/٨٢.

١- أن هناك صعوبة بالغة تحول دون تطبيق نظام الخلافة الإسلامية كنظام في الحكم الآن، وهي تكمن في إستحالة توافر الشروط اللازمة له وعدم ملاءمة المناخ الدولي والعربي لتقبله ومن هذه الشروط :

- إنه نظام إلهي ونبوي وإنه نظام في الحكم الشامل الثابت المستمر لأنه مستمد من أحكام القرآن الثابتة - وأنه هدفه الأساسي حفظ مصالح العباد في الدنيا وتحقيق سعادتهم فيها وفي الآخرة .

ولابد من تطبيقه على جميع البشر لعمومية أحكامه وشمولها وأنه صالح لكل زمان وأن هدفه العام هو خير البشرية العام .

٢- إن نظام الخلافة النبوي الذي طبق أيام النبي ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين يختلف عن أي نظام بشري آخر رغم التشابه الظاهري في بعض نواحي الشورى والديمقراطية .

٣- إن هذا النظام يقوم على أركان أربعة هي الشورى ثم الحرية وسيادة القانون، والجمع بين الدين والعلم، والمسئولية المشتركة .

٤- إن هناك شروطاً لازمة يجب توافرها في الحاكم المسلم . (١)

ولم يقف ابن باديس عند حد وضع التصورات والشروط لنظم الحكم وتحديد صفات الحاكم بل تعدى دوره إلى تحديد مقومات الدولة وعوامل التقدم وأسباب الإنهيار، وفي هذا الإطار وضع ابن باديس تصوراً متكاملأً للدولة العربية الواحدة التي تقوم على دعامة العلم والإيمان وتحكمها قوانين واحدة وثابتة في إطار عام من الوطنية والعروبة والإسلام .

إن تناسق المبدأ السياسي ونجاح ابن باديس في تحقيقه ثم تحديده لمبادئ

(١) راجع الباب الأخير من هذا البحث حول الخلافة الإسلامية.

المنهج الإصلاحى الشامل، ووصفه للتصور القابل للتطبيق حول ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع العربى والدولة العربية الواحدة قد دفعنا إلى عقد العديد من المقارنات بين المنهج الباديسى وبين ما وضعه فلاسفة اليونان القدامى من تصورات حول الدولة المثالية ومفهوم المواطنة، مع الإشارة إلى ما إستحدثه ابن باديس من إضافات فى وظائف الدولة وصفات الحاكم وعوامل التغيير والإصلاح. (١)

ويمكن القول إن نجاح ابن باديس فى تطبيق منهجه الإصلاحى يرجع أساساً إلى موقفه السياسى وشخصيته، وهو ما أكده الدكتور محمود قاسم فى كتابه: عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية حين يقول: إن فلسفة ابن باديس فلسفة ثورية هدفها إتخاذ موقف من كل عناصر الهدم الأخلاقى والدينى والإجتماعى، فرجال الطرق الخارجة عن الدين عنصر هدم ومنهم من أصبح الكعبة فى يد الإستعمار، وكذلك رجال التبشير المسيحى، ودعاة التجنيس والإندماج والفرنسة لذا لجأ ابن باديس إلى إفساد خطط الإستعمار ضد القومية العربية والإستقلال فلجأ ابن باديس إلى زيادة وتطوير وسائل النهضة العلمية والدينية.

ويصف ابن باديس نجاحه فى هذا الوقت فيقول: حاربنا الطريقة لما عرفنا فيها من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحمّلنا فى ذلك من صعاب وقد بلغنا غايتنا. (٢)

(١) راجع الباب الأخير من هذا البحث حول وظائف الدولة وأطوار النشؤ.

(٢) من مقال تركى رابع: ابن باديس والشخصية الجزائرية وفى الأصالة العدد الرابع وفى ابن باديس الزعيم الروحى، د. قاسم ص ٩٩، ١١١.

ثانياً : المعرفة والحكمة :

ترددت الآراء حول شخصية ابن باديس المصلح الفيلسوف بين فريقين أحدهما يؤكد على أن ابن باديس فقط صاحب منهج إصلاحى وليس فيلسوفاً بالمعنى التقليدى ، أما الفريق الآخر فيؤكد على أنه فيلسوف حقيقى ولهذا نطلق عليه اسم المصلح الفيلسوف ، وهذا الفريق يستدل على صدق رأيه بأدلة منها :

* قدرته على تصوير الواقع العربى وتحليل تاريخه ونشأته وعوامل ضعفه وقوته ، وأدلته المقنعة على ضرورات التغيير والتطوير ، وإثباته بأن العقيدة والعقل مفتاح كل إصلاح وتغيير .

* قدم نموذجاً للفلسفة الدينية التى مصدرها القرآن والسنة ومذهب السلف الصالح من الأمة ، من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فى صورة منهج متناسق مع الحياة والفكر يعكس تأمله الجيد لعناصر الحياة والعمران والاجتماع ، فى تأليف تام بين العقل والدين والعلم والحياة دون تفريط فى شىء منهما ، مما دفع عمار الطالبى ومحمود قاسم وغيرهما إلى وصف ابن باديس بالفيلسوف والمصلح ، رغم أنه ليس فيلسوفاً أكاديمياً ممن شيدوا نسفاً أو بناءً فكرياً يرتكز على مذهب معين أو مجموعة من الفروض الفلسفية المبنية .

* قدم مفهوماً عاماً للحكمة ووصفاً دقيقاً للحكيم مؤكداً بأن الفلسفة الإسلامية هى علم الحكمة وأن الفيلسوف بحق هو الحكيم ، والحكيم عنده هو الموصوف بالحكمة ، والحكمة فى مفهومها العام هى العلم الصحيح الذى يمسك صاحبه عن الجهالات والضلالات والسفالات فيكون ذا إدراك للحقائق قويم ، وذا خلق كريم وعمل مستقيم ، لا يحكم إلا عن تفكير ولا يقول إلا عن علم ، ولا ينقل إلا عن خبرة وبصيرة فإذا نظر أصاب وإذا فصل أطاب وإذا نطق أتى

بفصل الخطاب^(١) .

* قدم مفهوماً عميقاً للمعرفة العلمية فى إطار فلسفة التوحيد ليعارض بالدليل العقلى الذين أنكروا السببية ، والقائلين بالمعرفة الغيبية ، والمعرفة العلمية عنده تبدأ بمرحلة التأمل فى كل ما يدور فى الكون من ظواهر ، وهذا التأمل هو الذى يولد الشوق والرغبة فى البحث واستجلاء حقائق الكون ومنافعه .. وهذا التأمل لا يكون إلا بالعقل الذى أمرنا الله باستخدامه (هى التفكير والتأمل والاعتبار) لأن استخدام العقل فى هذه المعرفة هو الذى يشتمها ويقويها .

ويصف ابن باديس هذا النوع من المعرفة بأنها نوع من التربية لأنها تقوم على العلم قبل العمل ، وأنها مكتسبة عن طريق العقل وهى متغيرة ومتطورة لارتباطها بالإنسان المتطور والمتغير* .

وعارض ابن باديس القائلين بالمعرفة الغيبية وأكد أن هذه المعرفة تقوم على الظن وأنها غير يقينية وهى نوع من الوهم ، ثم يحذرننا من الاعتقاد بها ، أو الاعتماد عليها لأن ذلك من أسباب التأخر والبعد عن حقيقة العلم واليقين والدين ، ويؤكد على أن الاعتقاد فى هذه المعرفة والتمسك بها والاعتماد عليها أكبر مخالفة للسنة النبوية ، وفى مخالفة السنة كل بلاء لحق بالمسلمين حتى اليوم .

كما عارض الذين أنكروا السببية الكونية ، مؤكداً على أن إنكارها هو إنكار للحكمة الإلهية والنظام الكونى أصلاً ، لأن السببية الكونية هى التى تحدد علاقة الإنسان الحر أو المجبر بالله ، وأن هذه السببية كلها عدل وحكمة تظهر بجلاء فى

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبي ج ٢ ص ٥٩٠ .

* يمكن مقارنة رأى ابن باديس فى المعرفة والحكمة بأراء العديد من الفلاسفة الحسينيين أو الطبيعيين الذين قالوا بنبات المعرفة أبو بنوع واحد من المعرفة التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان لأنها تعتمد على الطبيعة وحدها لاعلى العقل أو حتى العادات والتقاليد والخبرات المتقلبة .

القدر ، إذ القدر - كما يقول ابن باديس - كله عدل وحكمة وما يضيّب العباد فهو جزاء أعمالهم وقد تدرك حكمة القدر ولو بعد حين وقد تخفى لأن من أسمائه سبحانه العادل الحكيم .

* قدم نوعاً من الفلسفة القرآنية بوصفها فلسفة الحكمة الإلهية ، على اعتبار أن القرآن الكريم يشمل كل علم وكل حكمة وأن الله تعالى يدعو إلى الحكمة وهو مصدر كل حكمة لقوله تعالى : ﴿ يوتى الحكمة من يشاء ومن يوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا ألوا الألباب ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢) .

ويقرر ابن باديس : أن حب الحكمة هو في حقيقته حب لله وحب للعلم وحب للحرية ، فهي الحكمة التي أمرنا الله بحبها والاعتقاد بها والعمل بها ، ودعانا إلى الإيمان بها محمد صلى الله عليه وسلم في رسالته الداعية إلى المحبة والحكمة والعلم . ودعانا في أحاديثه وترجمتها أفعاله الشريفة .

* وهذا الفريق يرى إمكان وصف عبارات ابن باديس بالحكمية وكذلك نظرياته في الأخلاق والدين والسياسة والاجتماع كلها حكمة وفي باب الأخلاق وأرائه في الفضائل وخاصة التعاون والوفاء والصفاء بأنها من الحكمة ... وإن ابن باديس قد نجح في عرض الحكمة الإسلامية الإلهية الداعية إلى الجدل بالحكمة ، وكذلك التأمل والاعتبار بالعقل كلها من الحكمة ، وأن الله تعالى وصف نفسه باسم الحكيم وأنه تعالى واهب الحكمة لمن يشاء من الأنبياء والصالحين ، وأن هذه الحكمة تتحقق بالفعل مع مساندة الطريق المستقيم بوصفه طريق الهداية والاستقامة واليقين* .

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) البقرة : ٤٢ .

* راجع آيات الحكمة والحكيم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢١٣ - ٢١٥ .

* نجاحه فى تطبيق الفلسفة القرآنية على مجالات عديدة جمعت بين الأخلاق والسياسة ، وربطت بين العلم والدين وتطهير العقائد بالتفسيرات الواضحة وكشف مواطن الدلل فى التأويلات الفاسدة لأصحاب الطرق الصوفية الذين أدخلوا العديد من الخرافات فى الدين . ثم تحديده للعديد من قضايا الفكر الإسلامى المختلف حول تفسيرها كالسببية والقضاء والقدر والإيمان وغيرها .

ويصف ابن باديس موقفه هذا فيقول : لقد عملنا على فضح معاصد القديم ومخاطب كل ما هو مزيف وغريب عن الإسلام وبث كل ما هو جديد من الفكر الحر .. كما أكد بوضوح على أن بناء الإنسان العربى ليس فى حاجة إلى دين الطرقية السالب ولكن فى حاجة إلى وعى وعقيدة سليمة وسياسة حكيمة وحرية فكرية أى أنه فى حاجة إلى تربية وتغيير وإصلاح وهذا لا يتم إلا بتشقيف العقول وبث روح التفاؤل،^(١) .

* عقلانيته الواضحة التى أسس عليها منهجه فى الجمع بين النظرية والتطبيق ، وما قدمه من آراء وأفكار قابلة للتطبيق خاصة عندما جعل الحياة الإنسانية وعلاقات الأفراد والأمم موضوعاً لتأملاته العقلية وتفسيراته المقتنعة ، وعندما جعل العقل أداة للفهم والتصحيح ، فكانت عقلانيته سمة بارزة فى جميع مواقفه وآرائه ، وأن هذه العقلانية هى التى هيأت له فرصة الاهتمام إلى أسباب التحلف وتحديد الآفات الاجتماعية وكيفية علاجها بنشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والريزلة .

وهكذا برز دور ابن باديس المصلح الفيلسوف فى الجمع بين الفلسفة والإصلاح وليكون واحد من رواد الفكر والثقافة فى العالم العربى الذين حملوا مشاعل الحضارة والعلم والنهضة ، وكان فكره الموسوعى وشمول منهجه وراء

(١) ابن باديس : الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية : د. محمود قاسم ص ٢٧ .

وصفه بالمصلح الاجتماعى والمفكر الإسلامى والأديب الصحنى والثائر الوطنى .. إلى آخر الصفات التى وصفه بها رجال العصر من أدياء وفلاسفة . وإقرارهم بأنه كرجل دين كان القرآن والسنة أساماً ومنهجاً ومنطلقاً لبداية فكره الفلسفى ، ومحور لآرائه فى المعرفة والحكمة والسياسة ، ولهذا لم يقف ابن باديس عند حد وضع التصورات وخطط الإصلاح بل كانت عقلانيته وواقعية تفكيره الإصلاحى نابعة من معاشته لقضايا المجتمع وتحولاته ، هذه المعاشة جعلته أكثر ميلاً إلى الفكر العملى والتطبيق الفعلى لمنهجه ومبادئه وآرائه فى الحق والعدل والمساواة ، وكان ذلك وراء ابتعاده عن التفلسف النظرى المجرد ...

ولذا قال البعض : إن الإضافة التى أضافها ابن باديس لتحركة الفكر الإصلاحى ومنهجه هى البعد السياسى وقدرته على تطبيق المبادئ الأخلاقية والتربوية .

* * *

ثالثاً : الإصلاح والتربية :

لقد بدأ الاهتمام الفعلي بأراء ابن باديس التربوية وأثرها الإصلاحية في بداية النصف الثاني من هذا القرن وبالتحديد في الفترة بين ١٩٦٥ ، ١٩٧٥ ، حيث ظهرت بعض المقالات والندوات التي تناقش أفكار ابن باديس الإصلاحية في الاجتماع والسياسة والشخصية وأثارها التربوية* .

وكان المحور الذي دارت حوله هذه الآراء منهجه العلمي الذي رسمه للخروج من حالة التخلف والجهل والضعف إلى حالة العلم والنهضة والقوة ، وما وضعه ابن باديس من وسائل لتقويم سلوك الأفراد ، وتوجيههم للبناء والحضارة مؤكداً على أن التربية وتهذيب النفوس هي الطريق الأمثل للإصلاح .

ويمكن تحديد ملامح الفكر التربوي عند ابن باديس فيما يلي :

١- ضرورة الاهتمام بالإنسان كهدف رئيسي عام ، علماً وعملاً وفكراً وسلوكاً ، وهذا الاهتمام يتمثل في ضرورة التعليم المدرسي والتعلميم بالقدوة وتنظيم الجماعة وخلق الوعي العام .

وفي هذا يقول ابن باديس : العلم قبل العمل ، ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال .. وقال أيضاً : إن ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما

* راجع في ذلك : أعضاء على الفكر العربي والإسلامي : نور الحندي ط ١٩٦٦ ، ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبي ط ١٩٦٨ م .

- ابن باديس والشخصية الجزائرية : مقال تركي رابع في الأصالة ع. ٢ مايو ١٩٧١ م .
- ندوة الأصالة : مناقشة حول كفايح ابن باديس ، ع ٢ مايو ٧١ ص ٧٤ - ٧٨ ، ومقال د. عمار الطالبي في الأصالة بعنوان . النزعة الإنسانية وجمالية عند ابن باديس .
- صفحات من الجزائر صالح خرفي ص ٧٣ .
- عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية : عمر بن قتيبة ط الجزائر ١٩٧٤ م .

نستطيع من كمال فى حياتنا الفردية والاجتماعية ، والمثال الكامل على ذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى سيرته الطيبة .

ولأن التعليم هو الوسيلة الأساسية لإحداث كل تغير وإصلاح ، استخدم ابن باديس لتحقيقه كافة الوسائل كإلقاء الدروس والتفسير وتعليم كتب السابقين وشرحها واستنباط القواعد والحكم منها ، ومثال ذلك تدريسه لكتاب الشفاء للقاضى عياض ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، والعواصم من القواسم لأبى بكر بن العربى ، وغيرهم ... ثم اهتمامه بأسلوب التذكير كأداة للتفهيم يعتمد على التفكير والتأمل وهذه العملية لا غنى للعقل عنها كما أن لها أبعادها الاجتماعية .. ويعلل ابن باديس أهمية العقل فى إتمام عملية التذكير والتفكير فى آلاء الله وآثاره وملاحظة التغيرات الاجتماعية وأطوار الأمم فيقول : «إن العقل فى حالة البعد عن التفكير والتذكر كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها محجوبة بحجب غفلتها فتعمى عن تلك الدلائل والآثار ويكون تورطها فى كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك الآثار ، كما أن التذكر هو عملية تفكير وتأمل فى دلائل العظمة والوحدانية ، ولذا فإن تمام التوحيد لا يكون إلا بالتفكير فى سر دلائل الربوبية والآلوهية وإفراد الله بالعبادة ، لأن توحيده فى ربوبيته يقتضى العلم بأنه لا خالق غير الله ولا مدير للكون ولا متصرف فيه سواه ..

ويشير ابن باديس إلى أهمية التعليم بالقدرة وأثره فى إصلاح النفوس فى مقال بعنوان «إصلاح التعليم أساس الإصلاح» فيقول : «لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماءهم لأنهم بمثابة القلب للأمة ، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم» . فالتعليم فى نظره هو الذى يطبع المتعلم بالطابع الذى يكون عليه مستقبل حياته ، وما يستقبله من عمله لنفسه ولغيره ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوى فى شكله وموضوعه ومادته وصورته ، فقد صح عن النبى

فيما رواه مسلم «إنما بعثت معلماً» (١) .

وهذا يعنى أن إصلاح المجتمع يتوقف على التعليم وتذكير الإنسان وتنبهه بما فى التاريخ من عبر ودروس واستخدام العقل فى إدراك الدلائل والآثار الهادية للإيمان واليقين .

٢- شمولية الإصلاح : أى أن يكون الإصلاح كلى لا جزئى ، ويتناول كل ميادين التوجيه الأخلاقى والثقافى والسياسى للفرد ، لأن الانصراف لإصلاح جانب واحد فى الفرد أو المجتمع لا يؤدى إلى إصلاح حقيقى بل يؤدى إلى التخریب والهدم . ولهذا فإن تحقيق هذه الشمولية يتطلب :

أ- موقف حاسم من عناصر الهدم الأخلاقى والذنبى والاجتماعى ورسم الخطوات اللازمة لمواجهته .

ب- إثبات مدى الارتباط بين الفكر والسلوك ، بين الاعتقاد والعمل . ولهذا فهو يؤكد دائماً على ضرورة أن يكون العلم قبل العمل ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ، ثم يؤكد هذا بدليل تاريخى على اعتبار أن المنهج الذى نجح به المسلمون الأولون فى تغيير العالم إنما هو سلوكهم وتطبيقهم الإسلام على أنفسهم قبل غيرهم فى الحياة .

ج- ضرورة تعاون الإرادة والفكر والعمل ، فهذا التعاون سبيل بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة ظاهراً وباطناً ، لأنه يحقق تكامل الجانب الخلقى والعقلى والعملى والعضوى فى الإنسان ، ويؤكد ابن باديس ذلك بقوله : «إن الكمال الإنسانى متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة والفكر والعمل فهى أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد ... وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة الإرادة والفكر والعمل ، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها ، فالعمل متوقف على البدن ، والفكر متوقف على العقل ،

(١) ابن باديس : حياته وآثاره : عمار الطالبي ج ١ م ١ ص ١٠١ .

والإرادة متوقفة على الخلق ، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين والعمل المفيد من البدن السليم ، ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة : عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم....^(١) .

٣- الاهتمام بالجانب النفسى ، وهو ما يسميه ابن باديس بالجانب الباطنى، وهذا الجانب هام لأن الباطن عنده أساس الظاهر وإصلاح النفوس هذا يتطلب :

أ- الاعتماد على الحجة والإقناع والمصارحة والدعوة بالتي هي أحسن ، ووضع التكاليف والأوامر الإلهية المتوجهة للنفس الإنسانية فى صورة وصايا أخلاقية تدعو إلى التحلى بالصبر والثبات والصدق والرحمة والمحبة لأن ذلك سبيل تحقيق الصفاء والراحة للنفس ، وفى هذا يحذر ابن باديس من وسائل العنف والشدة ، لأن إصلاح النفوس لا يكون بالشدة بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة، ويحذر ابن باديس حتى من استخدام أسلوب التقرير الذى ينفر الناس عند الوعظ وتقبل النصائح .

ب- ضرورة النظر فى النفس وفهمها وإصلاحها فذلك أمر إلهى ومطلب إنسانى ، ولذا يعتبر ابن باديس أن العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس لأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها ، استشهاداً بقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها ﴾^(٢) .

ويرى ابن باديس أن فهم النفوس وإصلاحها دعوة إلهية ، لأن الله تعالى أمرنا بالنظر فى النفس لفهمها وتوجيهها ، فقال تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(٣) ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها ﴾^(٤) .

(١) آثار ابن باديس ج ١ م ١ ص ١٠٤ ، ج ٦ ، م ١٢ ، ص ٣٤٩ .

(٢) الشمس : ٧ . (٣) الفاريات : ٢١ .

(٤) الشمس : ٧ .

فكان هذا الاهتمام القائم على النظر في النفس والتأمل الباطني لقدراتها لإدراك حقيقتها وطبيعتها ومن ثم توجيهها حسب قدراتها ، ماذا تستطيع أن تفعل وما لاتفعل ، ولهذا ارتبط الفعل بالقدرة ، كما ارتبط التكليف حسب هذه القدرة للنفس كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ (١) .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (٢) .

وهنا يشير عمار الطالبي إلى مدى نجاح ابن باديس في إثبات أهمية الاهتمام بالنفس ومعرفة قدراتها ، وأن هذا الرأي يتعارض مع دعاء الإصلاح الاجتماعي في إرجاعهم الإصلاح إلى إصلاح المؤسسات الاجتماعية ، أما ابن باديس فيثبت أن الإنسان والنفس أولى وأهم من إصلاح المؤسسة كما يشير إلى أن ابن باديس لم ينكر أهمية إصلاح المؤسسات التربوية والاجتماعية أو البيئة عموماً ، كما لم ينكر أثرها الفعال في توجيه ملوك الفرد . بل إنه حاول التأكيد على الإصلاح الشامل الذي يتطلب الاهتمام بالإنسان مع الاهتمام بالمؤسسات والبيئة في نفس الوقت ، ولكن ينبغي البدء بالإنسان (٣) .

٤- القرآن هو القاعدة الأساسية لبناء الفكر وتوجيه السلوك ، وذلك يعني أن التربية والإصلاح تكون بما في القرآن من علم ومعرفة والالتزام بتعاليمه وتطبيقه لمتجهه ، والاعتماد على لغة القرآن وما فيه من علم وبيان ودعوة صريحة لاستخدام العقل في النظر والتفكير والتدبير والاعتبار ، والاعتماد على أصول البيان العربي والتمقق في فهم قوانين النفس البشرية ومسن الاجتماع الإنساني وتطور تاريخ الأمم ، كما يعني أيضاً ضرورة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه القرآن وينطق بالوحي والصدق والبيان ... وهذا كله في معنى قول ابن باديس : أننا

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) آثار ابن باديس ج ١ م ١ ص ١٠١ .

نرى تلامذنا على القرآن من أول يوم .

- ولتطبيق هذه القاعدة عملياً حاول ابن باديس ربط التربية بالإصلاح الاجتماعي ، وشرع في تنفيذ تعاليم القرآن في مواجهة الآفات الاجتماعية والنقائص الأخلاقية ، وقدم نظرية متكاملة في الأخوة الإسلامية والترابط الاجتماعي في ظل نزعة إنسانية تقوم على ركائز ثلاثة هي : وحدة الأديان والوحدة البشرية ووحدة الأوطان ، وأن هذه الثلاثة تقوم على دعامين أساسيتين هما الحب والأخوة ...

وأثبت عملياً أن التدهور الاجتماعي راجع إلى عدم تطبيق قواعد الإسلام وانفصال الإنسان العربي عن الحقيقة القرآنية بوصفها رمز التكامل لجوانب الحياة واستمرارها .

وفي هذا الإطار أيضاً قدم ابن باديس تفسيراً كاملاً للقرآن قدمه درساً وإملاءً على تلاميذه ، حاول فيه بث مبادئ ثورته الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة ، ومواجهة القضايا الفكرية والعقائدية ، وخاصة مباحث التوحيد الرئيسية في الألوهية والربوبية والوحدانية ، كما حاول حسم مسائل الخلاف التقليدية في مسائل الصفات والقدر والاعتقاد والعمل ...

- ووصف عمر بن قنية مدى نجاح ابن باديس في منهجه الإصلاحية والتربوية فيقول : ابن باديس كان المصلح الجزائري الأول الذي برز بوضوح على كل سابقه ووجع التربية الذي تفرغ لمهنته تفانياً وأستاذاً لكل أبناء القطر في مختلف جهاته ... لقد أدت أفكار ابن باديس دورها على خير وجه ولا يزال لها أثرها العملي المباشر وسيبقى لها شأنها ، فكان الرجل المثالي في نكران الذات مما يجعله بحق يستحق الشاء والخلود^(١) .

(١) عمر بن قنية : عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية ص ٧ ، ٣٥ .

وكان الأثر الإيجابي من تطبيق هذه القاعدة في تحول بعض أصحاب الطرق الصوفية التي كانت تصرف الناس عن العمل ومحبة إليهم التراكل والعزلة ، أن تحول هؤلاء عن مبادئهم ، وانضموا إلى صفوف العلماء ، ليعملوا معاً على نشر الدين الصحيح ، ونصحيح المفاهيم الخاطئة في الدين ، وبث روح المقاومة في الشعب ، وانتشار دعوة الإصلاح وظهور طبقة المثقفين .

ويصف ابن باديس هذا الموقف بقوله : لقد عملنا على فضح مفاصد التقديم وتخطيم كل ما هو مزيف وغريب عن الإسلام ، وبث كل ما هو جديد من الفكر الحر ..

كما أكد بوضوح على أن بناء الإنسان العربي ليس في حاجة إلى دين الطريقة السالب ولكنه في حاجة إلى وعي وعقيدة سليمة وسياسة حكيمة ، وحرية فكر أي أنه في حاجة إلى تربية وإصلاح ، وهذا لا يتم إلا بتثقيف العقول وبث روح التفاؤل^(١) .

ولولا ظروف المجتمع الجزائري أيام ابن باديس وخضوعه للاستعمار لكانت الفرصة لتطبيق مناهجه التربوية والتعليمية ، ويقدر ما سمحت الظروف السياسية آنذاك قدم منهجاً للتعليم يقوم أساساً على ناحيتين : إحداهما تربوية والأخرى تعليمية ، ففي الناحية التربوية كان القيام بتربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، وفي الناحية التعليمية اهتم بتثقيف الأفكار بالعلم وتعليمهم الصنائع ، إلى جانب الاهتمام باللغة العربية والأجنبية وقسم المعلمات إلى طبقات واشترط في تعليم المعلم ، والخطيب المعرفة الكاملة بأساليب التفهيم ، وفهم نفسية المتعلمين وحسن التنزل لهم ، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم حسب درجاتهم واستعداداتهم ، مع البعد عن المصطلحات

(١) راجع الفصل الأول من هذا البحث ، وفي ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية . د .

الفقهية التي لا يفهمها الطلاب مع الاهتمام بالمعنى .

والى ابن باديس يرجع الفضل فى تطوير مناهج التعليم وأساليب التدريس وادخال نظام تقسيم التعليم والمتعلمين إلى مراحل وأقسام تخصصية مع ضرورة تعديل المناهج الدراسية بما يتناسب وكل قسم ، كما أدخل إلى جانب علوم اللغة والدين والتفسير والحديث علوماً أخرى مفيدة كالتاريخ والحساب والجغرافيا والفرائض ودعا الجميع إلى ضرورة الاطلاع على مدارك المذاهب حتى ينظروا إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة^(١) .



(١) راجع ابن باديس : حياه وقاره ج١ ص ١٦٦ وما بعدها ..